

الباب الخامس

في مدّة جبهة الأعراب السريعة العالمية

انتقلت الجبهة من موسكو الى « أوفّا » في خريف عام ١٩٤١ م • وتقع « أوفّا » — عاصمة جمهورية « البشكيريين » المتمتعة بالحكم الذاتي — على بعد ٢٠٠ كيلو متر تقريبا من موسكو •

وهي ليست من « المدن الأولى » التي استوطنها المهاجرون ، فقد هاجرت الدوائر الحكومية والهيئات الدبلوماسية الى « كويبيشيف » عند « الفولجا » ، ونقل جزء كبير من المصانع من غرب روسيا الى « نوفوزيبيرسك » والى « كويبيشيف » فأصبحت أثناء الحرب مركزا صناعيا هاما • ونقل قلم محفوظات العلوم الهامة ، واللوحات الفنية ، ذات القيمة الكبيرة ، وموجودات المتاحف في بداية الحرب الى « تومسك » وكانت « ألما — أتا » و « طشقند » مركز المهاجرين من الفنانين والعلماء • وعلى العكس ، فقد ظلت « أوفّا » على الهامش ، وربما كان هذا هو السبب في هجرة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية إليها ، فقدت الجبهة كثيرا من نفوذها وأهميتها في الشهور الأولى للحرب ، عندما زحفت قوات الجيش الألماني ، حتى وصلت « ليننجراد » ، وطوقت موسكو ، واحتلت الجزء الأكبر من « أوكرانيا » •

ولكن تغير وضعها في أوائل عام ١٩٤٢ م ، فقد ردت القوات الألمانية عن موسكو ، فتراجعت الى الوراء ، ووقفت عاجزة أمام « ليننجراد » ، فكان هذا فترة تنفس للاتحاد السوفييتي ، سمحت له ، لا بتجنيد وتدريب قوات جديدة فحسب ، بل لتوجيه جهود مكثفة في المجال السياسي أيضا • ولعب النشاط السياسي دورا كبيرا في معسكرات الأسرى •

فقد عقدت فعلا اجتماعات في نهاية عام ١٩٤١ في معسكرات أسرى الحرب الذين أبدوا استعدادهم — عدد كبير منهم عن اقتناع حقيقي ، غير أنه أحيانا كان مجرد مجازاة للموقف — للتوقيع على النداءات ،

التي كانت موجهة الى الشعب الألماني ضد هتلر. (١) .

اشترك أعضاء جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية في العمل السياسي في معسكرات الأسرى . وقاموا بدور لا بأس به . اذن ، لم تهمل الجبهة منذ بداية الحرب ، فتشل عن العمل كلية ، بل بالعكس ، فقد أسند اليها واجيبت منذ بداية عام ١٩٤٢ م .

جند لهذا للعمل كثير من اللاجئين الذين كانوا قد رحلوا اجباريا في خريف عام ١٩٤١ م «كأجانب غير موثوق في ولائهم» .

لم يكن هذا واضحا لي ، عندما وصلت في يوليو سنة ١٩٤٢ الى «أوفنا» . وظهر لي وجه المدينة كوجوه كل المدن السوفييتية أثناء الحرب :

الازدحام الشديد في المحطات . جمهور الشعب ياد عليه التعب ، والألم هناك . والجوع . مهاجرون بؤساء .

* * *

«أوفنا» مدينة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية

تكمن بورقة صغيرة — يتعلق بها كل شيء — في جيبي الخلفي الدخلي ، المعلق بدبوس حتى لا تسقط فتضيع ، ويضيع معها كل شيء الآين . ففيها عنوان اللجنة المركزية لـ (M.O.P.R.) «رابطة التنظيم العالمي

(١) من بين النداءات المهمة ، التي وجهها أسرى الحرب في الاتحاد السوفييتي في عام ١٩٤٣ م اعلان المؤتمر الأول الذي أصدره ٥٧٦ أسيرا رومانيا (٣٥ .يناير) ، وموافقة ١٧٦ أسيرا ألمانيا على بيان الـ ١٨٥ (١٢ فبراير) ، ونداء من الأسرى الفنلنديين الى الشعب والجيش الفنلندي (١٨ فبراير) ، وقرارات المؤتمر الأول للأسرى المجرين (٢٢ نوفمبر) ، ونداء من ٨٦ أسيرا نمساويا الى الشعب النمساوي والى جنود الجيش الألماني (٢٧ مارس) ، وموافقة من ١٣٩٣ أسيرا رومانيا على نداء الـ ٨٧٦ (٢٩ ابريل) .

وتبع ذلك فيما بعد احتجاج من ١١٥ أسيرا ألمانيا ضد الأعمال المشينة التي ترتكبها القوات الألمانية في المناطق المحتلة في الاتحاد السوفييتي (٤ يونيو) ، ونداء من ١٦١ أسيرا ايطاليا في معسكر ٩٩ الى جنود الحملة على الاتحاد السوفييتي . والى كل الجنود في الجيش الايطالي (٢٥ يونيو ١٩٤٢ م) .

لحماية المناضلين من أجل الثورة « تلك الهيئة التي ينبغي التوجه إليها أولاً .

وبعد نصف ساعة تقريبا ، وجدت المبنى المكتوب على واجهته اللجنة المركزية لـ (M.O.P.R.) « رابطة التنظيم العالمي لحماية المناضلين من أجل الثورة » ... نظرت الى احدي السكرتيرات نظرة ارتياح وشك . اذ يبدو أن هيئتي ، بعد سنة في « كازاخستان » كانت تدعو الى الارتياح .

— « أنا آت من « كارجندا » بناء على استدعاء من هنا ، وأريد تبليغ الرفيق رئيس المنظمة بحضورى » .

تغيرت نظرة السكرتيرة الى احترام وتقدير ، ويبدو أنى لم أكن أول من استدعى من « كارجندا » أو عن « سيبيريا » .
— « نعم أيها الرفيق ! انتظر لحظة من فضلك ! » .

وبعد نصف ساعة ، مثلت أمام رئيس اللجنة المركزية للرابطة فوجدت أمامه على المكتب بعض الأوراق ، من المحتمل أنها تقارير عنى . نظر الى ، ثم الى الأوراق الموضوعه أمامه ، التي كتب فيها شئ عن حياتى السابقة . ورغم هذا فقد طلب منى الادلاء باسمى ، ومحل ميلادى ، وتاريخ الميلاد ، وتاريخ دخولى الاتحاد لسوفييتى ، وتاريخ التحاقى بمنظمة الشباب .

ثم سألتنى فجأة :

« كيف سارت معك الأيام في « كزاخستان » ؟

فأجبت دون تردد :

« جيد جدا ، فقد اعترضتنى بعض الصعاب فى الأسابيع الأولى ، ولكنى بدأت دراستى فعلا فى نوفمبر ، والحياة فى « كارجندا » مشوقة جدا ، ولقد تعلمت أشياء كثيرة » .

قلت الحقيقة ، فلقد تربيت على ملاحظة الجانب الحسن فى الاتحاد السوفييتى ، ونسيان الجانب السئ ، وتمكنت هذه العادة منى تمكن دمنى ولحمى . فلم يزل فى ذاكرتى حتى الآن ، أن الحياة فى « كارجندا » كانت جميلة ومفيدة .

يبدو أن الاجابة قد أعجبته ، فسألنى والسرور يعلو قسمات وجهه :
— « حسنا ! أنت أول من يقول هذا ، فنحن لا نسمع سوى

الشكوى • انه لجميل جدا ، إذا نظر المرء الى الأمور نظرة تفاعل « •
ثم بدت علامات الجدل على وجهه ، فشعرت أننا دخلنا في الموضوع :
« أيها الرفيق « ليونهارد » ! لقد استدعتك الى هنا جبهة الأحزاب
الشيوعية العالمية ، ونحن هنا مكان الاستقبال » •
ثم أخذ ورقة ، وكتب عليها أسما وعنوانا ثم ناولها لى فقراءت
عليها : « أليزا لينينا — ٧ فيلكوف » •

— « الجبهة الآن في مقر الجواله السابق ، فاذا لم تعثر عليه
بسرعة ، فستستطيع أن تسأل عن « منزل الجواله » فكل واحد في « أوقا »
يعرفه » •

انتصب قائما ، فانتهت المقابلة ، ثم أخذت طريقى الى هناك
مباشرة • كنت مشدود الأعصاب بشكل لا يتصور ، فلا زلت جاهلا كل
شئ عن « فيلكوف » ، من يكون ؟ ولكن يبدو مؤكدا أن له نفوذا كبيرا ،
لأنه استطاع أن يستدعى لاجئا ألمانيا منفيًا ، من « كازلخستان » ،
ويزيح من أمامه كل حواجز المطرق ، حتى يصل الى « أوقا » •

وفي الطريق من « رابطة التنظيم العالمى لحماية المناضلين
من أجل الثورة » الى « فيلكوف » الكبير ، المجهول ، ذارت
بذهنى أفكار مختلفة ، هل سأكلف بعمل سياسى ؟ ربما فى الاذاعة أو
فى معسكر أسرى الحرب ؟ ولكن لو كان هذا هو السبب ، لاستطاعوا
شرحه لى فى خطاب • من المحتمل — هكذا ظننت — أن الأمر يتعلق
باستدعاء للخدمة العسكرية ، وربما يكون القصد تكوين فرقة عالمية ؟

وفي أثناء هذا وصلت الى المبنى المكتوب عنوانه على الورقة ، لقد
كان بالنسبة الى « أوقا » مبنى ضخما ، أقيم على ذلك النمط ، الذى
كان طابعا خاصا لقصور الجواله ، التى أقيمت فى بداية الثلاثينات •
كانت هناك حديقة صغيرة أمام المنزل ، وتنتصب عمدا ضخمة فى
مدخله ، وغطيت بوابته الكبرى بطبقة من المعدن ، ولا توجد ياقطة
عليه ، وليس هناك شئ على واجهته ، يشير الى أن اللجنة المركزية
لجبهة الأحزاب الشيوعية العالمية موجودة هنا •

دخلت متهيئا ، فقابلت فى المصالة أحد أصدقائى القدامى ، الذين
كانوا معى فى بيت الأطفال رقم ٦ ، وهو « أرنست آبلت » ابن أحد
الأعضاء القياديين فى الحزب الشيوعى •

اندفعت اليه :

— « أرنتست ! ماذا تعمل هنا » ؟

— « أردت أن أوجه اليك نفس السؤال » •

حكيت له باختصار عن ترحيلى الاجبارى الى « كاراجندا » ،
والتعريف المفاجيء باستدعائى الى « أوبا » •

بدا لى أن « أرنتست آبلت » يعرف أشياء أكثر ، ربما أستطيع
أن أستعلم منه عن بعض الأثياء :

— « أخبرنى ! من يكون « فيلكوف » هذا » ؟

نظر الى مستغربا :

— « انسان ! ألا تعرفه ؟ « فيلكوف » : هو الرئيس العسكرى

لجبهة الأحزاب الشيوعية العالمية » •

— « نعم ! علام يدل استدعائى المفاجيء الى « أوبا » ؟ هل
سأجند فى جيش خاص ؟ والا ! فعلام يدل هذا » ؟

— « جيش ؟ لا ! أنا لا أعتقد ذلك • من المحتمل أن تلتحق بمدرسة ،
اذ يوجد هنا عدد كبير • وربما تلتحق بمدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية
العالمية ، ... وهى الأحسن » •

وفجأة صاح صوت بلهجة نمساوية :

— « أرنتست آبلت » ! تعال ! انهم فى انتظارك » •

فودعنى « أرنتست آبلت » ومضى ، كان من الممكن أن أحصل منه على
معلومات أكثر ، لو لم يستدعيه صاحب هذا الصوت •

عندما أخبرت سكرتيرة « فيلكوف » بوصولى ، بادرت بالسؤال —
مباشرة عقب تقديم نفسى لها — عما اذا كنت جائعا ؟ تعجبت ! اذ لم
يسألنى أحد مثل هذا السؤال منذ عام • ودون أن تنتظر جوابا منى ،
أعطتني تذكرة صغيرة •

وقفت مندهشا فى الدور الأرضى أمام عتبة صالة مطعم جميل •
ولم أكد أجلس حتى أسرع الى احدى الخادماته ، فتناولت التذكرة
الصغيرة منى • ثم أحضرت شوربة ، وخبزا أبيض ، وكمية كبيرة من
الطعام واللحم ، وأخيرا حلويات •

كانت هذه أول وجبة ، يقدم لى فيها أصناف متعددة منذ بدء
الحرب • وبعد انتهائى من تناول الطعام ، أسندت ظهري على مسند
المتعد ، فسعدت بارتياح ، لم أشعر به منذ مدة طويلة •

جاءت المخادمة مرة أخرى ، وقالت :

— « هل تريد شيئاً آخر ؟ »

فقدت كلمات اللغة من هول المفاجأة ، في أثناء الحرب ؟ وبعد هذه الأصناف المتعددة من الطعام ؟ ثم سألتها :

— « هل يجوز طلب شيء آخر ؟ »

— « نعم ! طبعاً ! تذهب ببساطة الى المحضلة ، وتطلب منها تذكرة أخرى ، وفي هذه الأثناء أكون قد انتهيت من إعداد الصينية الثانية لك » .

أعطتني المحضلة تذكرة ثانية ، دون ابداء أى ملاحظة ، ثم سألتني مبتسمة : « هل جئت أيضاً من « كازاخستان » ؟ »

وبعد الانتهاء من الأكل ، ذهبت الى حجرة السكرتيرة ، فانتظرت بضعة دقائق حتى موعد مقابلي « فيلكوف » . رأيت رجلاً طويلاً ،

تظهر علامات الجد والحزم على وجهه ، كان الحديث قصيراً ، بدأ أولاً بالأسئلة العادية ، التي أجبت عليها بسرعة ، ومنها علمت أنه يعرف كل شيء عني ، وبالتالي عرف هو ، أنني أدرك أن كل ما يتعلق بي أمامه

على الورق . ثم قال « فيلكوف » ضاعطاً على مخارج الحروف : « نحن فكرنا في اعطائك فرصة التعليم في مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية ، وسيسافر بعض الرفقاء في الأيام التالية . ونرى أن

من الأصوب أن تمر على السكرتيرة كل يوم ، فسوف تخبرك بموعد السفر ، وستقيم في هذه الأثناء في « أوبا » . وستدير السكرتيرة سكننا

لك » .

في مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية ؟ لا أستطيع أن أصدق هذا !

ولم أدرك الا بعد خروجي ، أن « فيلكوف » لم يقل لي : أين مقر المدرسة ؟ ولم يزعجني آنذاك أنني لم أعرف الا الخطوط الرئيسية ،

فقد أدركت بمرور الوقت أن ذلك لم يرجع لطبيعة « فيلكوف » الشخصية ، بل كان ذلك ظابع نظام « البيروقراطية » السوفيتية .

قالت السكرتيرة : « أيها الرفيق « ليونهارد » ! ها هو ذا عنوان سكنك المؤقت ، وسوف يوصلك الآن الرفيق السائق الى هناك ، ويحضرك من سكنك الى هنا كل يوم في تمام الساعة العاشرة صباحاً ، وسأخبرك بميعاد

السفر ، عندما يحين الوقت » .

وأثناء نزولي على السلم ، فكرت في الكفاح الطويل المرير ، الذي قمت به في « كاراجندا » للحصول على تصريح الإقامة ، حتى يصبح لي الحق في الإقامة في مسكن الطلبة ، كيف تسير الأمور هنا بهذه المليوننة والسرعة ! كنت مندهشا .

خرجت من الباب ولا زلت في ذهول ، بل أشد ذهولي ، فالعربة واقفة على استعداد لتوصيلي ، وأي نوع من العربات ! ليست العربة العادية (Emmotschaka) (هكذا يسمون في الاتحاد السوفييتي العربة الصغيرة (M-I) ، التي يستعملها أعضاء الطبقة المتوسطة في قيادة الحزب) بل العربة الكبيرة الجميلة (SIS) عربية القياديين من أعضاء الحزب البارزين . فتح السائق الباب ، وسألني عن العنوان ، ثم انطلق .

وبعد عشر دقائق ، وقفنا أمام مبنى جميل وجديد ، لم يوجد اسم واحد على أي باب من أبواب الشقق ، بل أرقام فقط . وجدت مسكني في الطابق الثاني ، ضغطت على الجرس ، ولم أصدق عيني ، إذ تقف أمامي « جريتي لوبرباور » فتاة نمساوية ، كانت معنا في بيت الأطفال رقم ٦ ، ولم أرها منذ أكثر من عامين .

— « نهارك سعيد يا « جريتي » انه لرائع حقا ، أن أراك مرة أخرى » .

— « نهارك سعيد » .

قالتها بعدم اكتراث ، فعاصت فرحتي ، ثم بدأت أقص لها عن « كازاخستان » وما فعلته في هذه الساعات القليلة في « أوفا » . وفي هذه الأثناء ، انضم اليينا نمساوي آخر من رابطة الدفاع ، حياني دون أن يذكر اسمه ، ثم قادني إلى الحجرة . كان في كل حجرة سرير ، وخوان صغير بجانبه . هذا هو كل الأثاث في كل الحجرات ، وظهر لي أن هذا المسكن مؤثث فقط للرفقاء الذين يضطرون للإقامة في « أوفا » وقتنا قصيرا .

عاودت سرد قصتي مرة أخرى ، ولكن « جريتي لوبرباور » التي عرفتني فتاة مرحة ، ظلت صامتة ، توميء برأسها فقط بين الحين والآخر . بدأت أدرك في هذه اللحظة ، فقلت لها :

« الآن ! ماذا فعلت بك الأيام ؟ وماذا تعلمين ؟ وما هي مشروعاتك .

في المستقبل ؟ »

ظلت صامئة ، ثم قالت محاولة التهرب من الاجابة :

— « لا أعرف بالضبط » •

ثم عاد النمساوى مرة ثانية ، وقالت لى بلهجة صارمة :

— « لا ينبغي أن تتحدث كثيرا » •

فأمسكت عن الكلام خجلا •

كان لقاتئى بعد قضاء مدة طويلة فى « كازاخستان » مفرحا ، ولكن

سرعان ما أصبت بخيبة أمل ، فالشاب « آبلت » لم يمكث معى سوى

بضع دقائق ، وتركنى مسرعا الى من دعاه ، والفتاة المرحه « جريتى »

قابلتنى ببرود • وصمت عن الكلام •

تأسفت جدا ، الى أن فهمت أن الحياة الحالية لأصدقائى تختلف

عن أسلوب حياتى الماضيه حتى الآن • ومما لا شك فيه — هكذا علمت

بصفتى طالبا ، وعضو فى منظمة الشباب — أن هناك كثيرا من المجالات ،

لا يجوز الحديث عنها ، ولكن — على الأقل — استطعت أن أتحدث عن

كل شئ خارج عن المواضيع المحرم الحديث فيها •

ولكنى أدركت شيئا فشيئا ، أن هناك مقاييس أخرى • ربما تكون

المجالات المحرم الحديث فيها أكثر اتساعا هنا •

يمكن للمرء أن يصف « أوبا » فى ذلك الوقت بأنها « مدينة جبهة

الأحزاب الشيوعيه العالميه » ، فقد كانت الجبهة هى المنظمه الكبرى

الوحيدة التى هاجرت اليها •

استولى زعماء الجبهة على فندق (Baschkirija) وهو أكبر

وأحدث فندق فى المدينة ، ففيه يقيم « دولوريس ابارورى » ، سكرتير

عام الحزب الشيوعى الألبانى ، و « فيلهلم بيك » • و « فالتر أولبريخت »

من زعماء الحزب الشيوعى الألمانى ، و « كوبلينيج » و « فورنبيرج »

و « فيشر » من زعماء الحزب الشيوعى النمساوى • و « اندريه مارتى »

أدى كان لايزال فى القمة آنذاك ، و « آنا بانكر » التى كانت فى ذلك

انوقت زعيمة الحزب الشيوعى الرومانى ؛ كذلك « مانويلسكى »

و « فيلكوف » من الحزب الروسى ؛ وكانا يتوليان القيادة العامة للقسم

السياسى والادارى فى هذه الجبهة •

ونادرا ما كان يحضر « ديمتروف » — الذى كان آنذاك السكرتير

اعام للجبهة — الى « أوبا » لزيارة قصيرة • وكان زعماء الجبهة

(١٥ — نظام الحكم الشيوعى)

الآخرون في رحلات مستمرة ، مرة الى « كويبيشيف » ، حيث توجد الهيئات الحكومية ، والاذاعة ، وأخرى الى مدارس الحزب المنتشرة في كل أجزاء الدولة ، وثلاثة الى معسكرات أسرى الحرب ، حيث ينظمون الاجتماعات ، وينفذون البرنامج المرسوم لهم ، للاستفادة من الأسرى في الدعاية ، وللتأثير عليهم أيديولوجيا •

وأخلى بجانب فندق (Baschkirija) الذي كان قصر الجواله سابقا ، ثم اتخذ مقرا للجبهة حاليا — مبنيان كبيران آخران للجبهة ، وهما أضخم مبنيان في « أوبا » واستخدم مبنى الهندسة الجيولوجية في شارع « لينين » سكنا للطبقة المتوسطة من زعماء الجبهة ، ولأسر زعماء القمة في الجبهة •

كذلك اتخذ مبنى مدرسة الزراعة آنذاك في شارع « لينين » — ولم يكن جميلا مثل مبنى الهندسة الجيولوجية ، فضلا عن المقارنة بينه وبين الفندق — سكنا لأسر الطبقة المتوسطة في سلم زعماء الجبهة ، ويسكن فيه أيضا مجموعة من العاملين في الجبهة ذي المرتبة الدنيا : المرضى من المناضلين في أسبانيا ، الذين لم يعد ينتفع بهم في العمل السياسي ، وأسر هؤلاء الرفقاء الذين كانوا يعملون في هذه الأثناء في مدارس مختلفة ، أو يقومون بأعمال سرية خلف القوات الألمانية ، والخدم ، وعمال المطابخ في أجهزة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية •

وأقام أيضا في هذا المبنى أولئك الذين استدعوا من « كازاخستان » أو من « سيبيريا » للعمل السياسي ، وكذلك الذين يبدو أنهم — لسبب أو لآخر — غير مناسبين لأي عمل •

ولم يكن معظم سكان هذا المنزل على اتصال بالجبهة من قبل ، وكانوا أيضا أكثر بعدا عن (M.O.P.R.) «رابطة التنظيم العالمي لحماية المناضلين من أجل الثورة» ، التي تعيش الجبهة الآن تحت رعايتها وحمايتها •

وكما وزع هؤلاء الناس على أماكن السكن طبقا لطبقاتهم الحزبية ، وظهر الفرق واضحا بين طبقة وأخرى ، كذلك اختلفت معاملتهم بالنسبة للخدمات الأخرى • فكل الأعضاء الذين كان نشاطهم داخل الجبهة في المقر الرئيسي كانوا يحصلون على ثلاث وجبات يوميا في مبنى العمل وهو قصر الجواله السابق • والزعماء الكبار الذين كانوا يقيمون في الفندق الجميل (Baschkirija) كانوا يحصلون بالإضافة الى الوجبات

الثلاثة ، على طرد كبير ، ملئ بأصناف الفواكه والحلوى ، ويرسل الى محل اقامتهم •

أما الباقون من أعضاء الجبهة فيحصلون على ما يحتاجون اليه من أغذية ، من محل خاص بهم ، يوجد في الدور الأرضى لفندق (Baschkirija) ويحصلون على الوجبات الثلاث ، وعلى مقدار ما يأخذه عامل في بطاقة التموين • وبين الحين والحين يوزع عليهم بعض المأكولات الخاصة •

كان هذا وضع العاملين في جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية ، كل على حسب قيمة ما يقدمه في العمل السياسى ، نظام التقسيم الى طبقات في كل شىء في السكن ، والأكل • الخ • طبقة تلو الأخرى حتى القمة •



الرحلة العجيبة في القارب البخارى

مكثت في « أوبا » أسبوعا تقريبا ، وعشت لأول مرة حياة خالية من الهموم ، فتأخذنى السيارة في الصباح ، ثم أمر على السكرتيرة في الساعة العاشرة ، لأعلمها بحضورى ، فتواسينى بكلمة ، لعدم حلول وقت السفر بعد ، مؤكدة على أن أعود اليها في اليوم التالى • وأتناول يوميا وجبات متنوعة الأصناف • أقيم في حجرة جميلة ، ولا أقوم بأى عمل اطلاقا •

قابلت من وقت لآخر أصدقاء من رابطة الدفاع ، أو من القسم النمساوى في جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية • كانوا كلهم في تصرفاتهم مثل تصرف « جريتى » ، لم يذكروا كلمة واحدة عما فعلوه هنا ، ولا عن المكان الذى جاؤا منه ، ولا عما سيفعلونه بعد ذلك •

حاولت أن أتصرف مثلهم ، ولكن لم أنجح ، فقد كنت طالبا مدة ضويلة ، وقاسيت كثيرا في « كاراجندا » ، وكنت مسرورا لرؤية أصدقائى مرة أخرى ، ولكنى في نفس الوقت ، كنت حديثا « في الجهاز » فتصرفت عاديا رغم كل الاحتياطات •

وبعد أسبوع أخبرتنى السكرتيرة أننى سأسافر في اليوم التالى مع رفيقين آخرين الى المدرسة ، وينبغى أن أكون في مكتبها في الساعة العاشرة صباحا •

وصلت الى هناك في الساعة العاشرة تماما ، وكان في الحجرة اثنان غبرى ، ولكنها اتجهت الى أحدهما فقط ، وقالت له :

« نحن نرى أن من الأحسن أن تسافر اليوم الى المدرسة مع هذين الرفيقيين ، وهاهى ذى التذاكر » .
أعطتني مظروفا مغلقا ، ثم مد الاثنان الآخران أيديهما الى ،
فسلمت عليهما . ولكن لم يذكر اسميهما ، فلم أهتم بذلك .
قالت السكرتيرة : « وصلت العربية ، تستطيعون السفر الآن ،
أنمنى لكم رحلة طيبة » .

قادنا أكبرهما سنا الى عربية جميلة ماركة (SIS) ، ثم قال للسائق
كلاما ، عرفت أنه اسم ميناء . وبعد ربع ساعة وصلنا الى ميناء على
نهر « بياليا » .

ثم قال لنا : « سنسافر بهذا المركب البخارى » .
انطلق بنا المركب بعد دقائق قليلة . . كنت قبل عشرة أيام فى
« كازاخستان » ، والآن أجلس هنا فوق هذا المركب البخارى ، مع
اثنين تعرفت عليهما قبل وقت قصير ، ولم أعرف اسميهما حتى الآن .
مر الوقت ، ولم يتكلم الزميلان الا قليلا ، والآن ! شبتت من المواقف
المرحجة ، فكففت عن الأحاديث التى تطف الجو ، وتدخل علينا السرور .
« جو جميل ! أليس كذلك » ؟ سأل مرافقنا ، فأجبت : « نعم » .
يجوز لى على الأقل أن أرد بهذه الكلمة .

يبدو أن معظم المسافرين على المركب من الطبقة الفقيرة . واتخذنا
مقاعدنا بعيدا عنهم فى ركن ناء من المركب .
ثم نودى على المحطة القادمة « بالجوقيشتسنسك » . مر على
سفرنا الآن اثنان أو ثلاث ساعات ، وقد نزل كثير من المسافرين ،
فنظرت الى رفيقى متسائلا ، فهز رأسه .

فواصلنا السفر وبعد ست ساعات توقفت المركب مرة أخرى ونودى
اسم المحطة بصوت عال « كوشنارينكوفو » فقطب قائدنا جبينه . يظهر
أنه لم يعجبه النداء باسم المحطات ، ولكنه لم يكن يستطيع تغيير شئ
من هذا .

ثم قال : « أعتقد أنه يجب علينا الاستعداد للنزول » فتناولنا حقائبنا
صامتين . نزلنا متعبين من طول الرحلة ، ولكنى كنت مشدود الانتباه لما
سيحدث بعد ذلك .

لم أستطع معرفة ما يدور بذهن الاثنين الآخرين ، اذ لم يقولوا
شيئا ، وكذلك لم يظهر على وجوههم أى تغيير ، يستطيع المرء أن

يستتبط منه أية اشارة الى ما فى افكارهم • لم تكن هناك عربة فى هذه المرة ، ربما لزيادة التكتم ، ولم نذهب بحقائبنا فى اتجاه المساكن ، بل فى الاتجاه الآخر •

تقع القرية الصغيرة « كوشنارينكوغو » — كما علمت فيما بعد — على بعد ٦٠ كيلو متر • شمال غرب « أوبا » ولا يوجد خط حديدى يمر عليها ، بل المواصلة الوحيدة فى الصيف ، هى المراكب البخارية ، وفى الشتاء يصل الناس اليها بالمركبات المتزحلقه على الجليد • ومما لا شك فيه أنه مكان مثالى لمدرسة سياسية ، حيث لا يلحظ وجودها أحد ، ويقطع كل اتصال بين تلاميذها وبين العالم الخارجى •

وبعد نصف ساعة تقريبا سيرا على الأقدام وقفنا أمام مرتفع ، فقال المرافق : « سنتسلق هذا الجبل » • فتسلقناه صامتين ، ولم نتبين حتى الآن شيئا ، فلا توجد مستعمرة ، ولا عربة ، ولا منزل •

مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية

فى « كوشنارينكوفو »

وبعد ربع ساعة آخر رأينا بعض المنازل الكبيرة ، بدت عليها المقذارة والاهمال ، يبدو أنها كانت فى السابق « دورا » لأحد الاقطاعيين • ورأينا بجانب المبنى الكبير منزلين أو ثلاثة ، ويتوسطها ميدان كبير ، احتقرت المكان ، لأنى وجدته أقل مما كنت أتخيله كمقر لمدرسة الجبهة • اعتقدت فى بادىء الأمر ، أننا لم نصل بعد الى المدرسة ، ولكن مرافقنا قال : « سنذهب الى هذا المكان » وأشار الى المبنى الرئيسى • وأمام المدخل سمعنا آخر أوامره : « لن يكون سيئا أن نثبت حضورنا فى السكرتارية » • فتوجهنا صامتين الى الدور الأول •

تركنا واقفين ودخل الى السكرتارية ، ثم عاد الينا بعد دقائق ، فأشار الى الرفيق الآخر بالدخول ، ووقفت أنا منتظرا خارج السكرتارية ، وبعد دقائق خرج وأعطانى اشارة فهمت منها أن قد حل دورى • قابلتتى سكرتيرة فى الداخل ، فتكررت تمثيلية الأسئلة والأجوبة المعروفة ، وبعد هذا التمهيد الممل ، نظرت الى نظرة حادة ثم قالت :

— « عندنا في المدرسة نظام معين :

أولا : لا يجوز لك مغادرة منطقة المدرسة دون تصريح ، وأحب أن ألفت انتباهك الى أن من لم يراع هذا النظام يقع تحت عقاب صارم •
ثانيا : من المسلم به ، أنه لا يجوز لك أن تشير أدنى اشارة في خطاباتك الى المكان الذي تقيم فيه هنا ، فلا يجوز كتابة اسم مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية ، لا في الخطاب ، ولا على الظرف من الخارج تحت اسم المرسل » •

لم أسمع حتى بمثل هذه الأسياء ، فقد كنت طالبا ساذجا •
قلت لها : « نعم ! ولكن ماذا أكتب على الظرف ، أعنى عنوان المرسل » ؟

فقلت : تكتب :

(Baschkirische ASSR. Kuschnarenkowo Landwirtschaftliches Technicum Nr. 101). وهذا يكفي •

توقفت قليلا ، ونظرت الى نظرة فاحصة ، ثم واصلت حديثها :
« وأهم شيء الآن : ليس مسموحا لك بأن تقول اسمك الحقيقي لأي انسان ، ولا تحكى أى شيء — مهما قل — عن حياتك السابقة ، وأحب أن ألفت انتباهك الى أن المحافظة على هذه القاعدة ضرورى جدا ، فلا يجوز لأحد — حتى أولئك الذين يعرفونك من قبل — أن يناديك باسمك الحقيقي » •

وتوقفت مرة أخرى عن الكلام ، ثم سألت بلهجة أقل صرامة :
« والآن •• ما هو الاسم الجديد ، الذى تريد أن تتادى به هنا » ؟
فقلت : « ليندين » •

كتبت الاسم ، ثم قالت :

« حسنا ! فأنت من اليوم « ليندين » فانسى اسمك الحقيقي ، وتذكر دائما أنك تدعى « ليندين » طول مدة اقامتك في المدرسة • هذا هو كل ما عندي ، وتستطيع الآن أن تذهب لتناول طعامك ، وسأريك بعد الأكل مكان النوم ، وفي الصباح الباكر ستقابل المدير ، وسيقول لك التعليمات الأخرى » •

عندما دخلت المطعم ، لم أر أحدا • كان الطعام جيدا ، ولكن لم تعد جودة الطعام تثير انتباهي « ما أسرع ما يتعود المرء على كل شيء جديد » فكرت في هذا عندما فتح الباب ، ودلف منه صديق قديم • هو « جان فوجيلر » اندفع الى فرحا : « رائع ! أن تكون هنا » !

كان « جان » زميلي في الفصل في مدرسة « لبيكنيشت » في موسكو ،
وكنت أميل اليه كثيرا • وهو ابن الرسام الألماني « هاينريش فوجيلر »
من (Worpswed) وكان يعيش منفيا في الاتحاد السوفييتي ، ورحل
معي في خريف عام ١٩٤١ الى « كازاخستان » ، ومات في أوائل عام
١٩٤٢ م من قسوة الحياة ، فقرا ، وجوعا ، وبردا •

مضى على موته أكثر من نصف عام ، وهاهو ذا ابنه ، ومما لا شك
فيه أنه علم بموت أبيه منذ مدة طويلة ، ولكن يبدو ظاهريا أن هذا
الحدث لم يغير من موقفه السياسي شيئا على الاطلاق • وكان هذا هو
وضع كثير من الشبان في الاتحاد السوفييتي • كان « جان » عضوا
متحمسا في منظمة الشباب ، وكان يتحدث بحماس بالغ عن الاتحاد
السوفييتي •

وبعد التحيات مباشرة بدأ يحكى :

« هل تعلم ، أين كنت ؟ لا ! فلن تستطيع تخيل هذا » •

ولم يمكنني من التفوه بكلمة واحدة ، فقد استمر في حديثه :

« كنت في الجبهة ، ولم أعد الا قبل وقت قصير • وقد سمح لعدد
قليل من الألمانين بالذهاب الى هناك ، وكيفما كان الأمر ، فقد كنت
محظوظا ••• كنت مترجما ، ترجمت مرة للمارشال « شوكوف » •
أتدري أن « شوكوف » خرافي مدهش » •

ثم حكى عن الجبهة ، وكنت أسمع منه مرارا وتكرارا : « شوكوف ••
شوكوف •• شوكوف •• » •

لم يكن هذا مفاجئا لى ، فقد سمعت كثيرا في « كازاخستان » عن
الاعجاب بـ« شوكوف » •

يتمتع « شوكوف » بشعبية حقيقية — لا مصطنعة ، ولا نتيجة
نفاق — بين الجيش والشباب ، وربما كان هذا هو أحد الأسباب التي

دفعت « ستالين » الى عزله في نهاية عام ١٩٤٦ م •

أنصت الى « جان » باهتمام ، ولكنني كنت أتحنين الفرصة ، لتحويل
حديثه الى المدرسة ، آملا أن أعرف منه شيئا عنها •

ولكنه تحول من نفسه بأسرع مما تصورت ، وفجأة حك شعره
بأصابعه ثم قال :

« آه ! لا يجوز لى أن أحكى شيئا عن حياتي الماضية ، أرجوك !

لا تخبر أحدا بما وعلى فكرة . ما اسمك هنا ، حتى لا أخطئ ،
في هذا أيضا ؟

— « اسمي : « ليندين » وأنت ؟ »

— « دانييلوف ، . . . جان دانييلوف » .

غريب حقا ! فبمجرد أن ناديته باسمه الحركي ، تحول الى شخص
آخر . شخص حذر ، ومراوغ في الاجابة على سؤالى .

— « المدرسة ؟ نعم ! ماذا ينبغي أن أقول ! نحن مقسمون الى
مجموعات حسب جنسية الدارسين ، وتوجد محاضرات عامة للجميع ،
ثم دروس في حلقات منفصلة لكل قسم ، ويقود المجموعة الألمانية
« كلاسنير » هذا هو اسمه في المدرسة ، أما اسمه الحقيقي فلا أعرف
بالضبط » .

— « هل يوجد هنا زملاء آخرون ممن كانوا معنا في بيت الأطفال
رقم ٦ ، أو في مدرسة « كارل لبيكنيشت » ؟ »

— « هيه ! هيه ! : ماذا أقول ؟ أوه ! سوف ترى بنفسك » .
تحول في ثوان من عضو متحمس في منظمة الشباب ، الى عضو قيادي
في الحزب ، غارق في المسؤوليات ، ويزن كلماته قبل أن يتلفظ بها .
وبعد لحظة دخلت السكرتيرة الى صالة المطعم وقالت :
« أيها الرفيق « ليندين » أريد أن أريك الآن الحجرة التي ستنام
فيها » .

عرفتني أولا على الدور الأرضي ، حيث توجد حجرات الدروس ،
والحلقات الدراسية المنفصلة لكل مجموعة .

وكان في آخر الدور الأرضي سلم خشبي قديم ، يحدث أصواتا
تحت الصاعدين والنازلين ، ثم ممر ضيق . أشارت السكرتيرة الى أحد
الأبواب قائلة :

« هنا المكتبة ، وصالة الاطلاع » . ثم توقفت أمام الباب الأخير :
« هاهي ذى » .

رأيت حجرة كبيرة بها ١٥ سريرا تقريبا ، وبجانب كل سرير خوان
صغير ، وفي الوسط منضدة كبيرة . لقد كان الوضع بالضبط كما كان
في حجرة النوم في معهد المعلمين في « كاراجندا » ، ويختلف عنه في
أننا كنا هناك في مبنى جديد ، وهنا في « دورا » قديم .

خاب ظني ! فبعد الذي رأيته في « أوفيا » تخيلت أن المدرسة ستكون في وضع أحسن مما أراه الآن أمامي .

قادتني السكرتيرة الى سرير خشبي بدائي وقالت :

« هذا مكانك . انتت الى من فضلك غدا ، لأقدمك الى المدير » !
والآن ! جلست مندهشا ، حائرا ، أفكر في كل الأحداث التي مرت بها في الأيام الأخيرة ، وانتظرت بأعصاب مشدودة ، لأرى ماذا تقدمه لي مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية .

وبعد دقائق قليلة ، دخلت أول مجموعة من زملائي في حجرة النوم ، كانوا أسبانيين ، حيوني بايماءة رأس ، ثم جاء الى أحدهم وقال :
« أسباني » ؟ فقلت : « لا ! ألماني » وفي هذه اللحظة شعرت بالخوف ، فلربما قلت أكثر مما يجوز لي . سررت بالسكن مع أسبانيين ، لأنه كان لي أصدقاء أسبانيون في موسكو ، وأعجبنى جو اللاجئين الأسبانيين أحسن من جو الألمانين .

وفجأة اكتشفت وجود صديق حميم هو « ميشا فولف » فهو من أصدقائي في موسكو ، وقابلته في « ألما - أتا » قبل بضعة أسابيع . أردت أن أندفع اليه ، وأنادي « ميشا » ولكنني تذكرت بسرعة أن له اسما آخر هنا ، وأنه لا يجوز لي أن أتحدث بشيء حتى لأصدقائي القدامى ، وورأني في هذه الأثناء ، فسار بخطوات بطيئة نحو سريري ، ومد يده الى متعمدا عدم المبالاة وقال : اسمي : « فورستر » .

فرددت عليه : اسمي : « ليندين » .

فقال لي :

— « جميل أن تكون هنا ، فسوف تتعود على هذه الحياة بسرعة » .

— « نعم ! فأنا مسرور أن أكون في هذه المدرسة » .

ولم نقل شيئا أكثر من هذا ، فقد التزمنا تنفيذ التعليمات بطريقة صارمة ، وإن كان ذلك أمرا يدعو الى السخرية ، لأننا أصدقاء منذ عام ١٩٣٥ م ، أي منذ ثمانية أعوام .

كان سرير خاليا بيننا ، وكنت شغوبا بمعرفة من ينام في هذا السرير بجانبى « ألماني » ؟ فأومأ « ميشا » برأسه . رتبت حاجاتي في الخوان ولم ألاحظ أن جرى في السرير قد دخل صالة النوم ، ووقف بجانبى . التفت فجأة فرأيت « هلموت جينيس » الذي كنا نسميه في بيت الأطفال ' (هلميرل) وكان من أعز أصدقائي .

ينحدر « هلموت » من شرق « بروسيا » حيث كان والده من زعماء الحزب الشيوعي • كنا نعمل واجباتنا المدرسية — لمدة سنوات عديدة — على منضدة واحدة في بيت الأطفال ، وقرأنا كتبنا واحدة تقريبا ، وتناقشنا طويلا أثناء تجولنا ، الذي كان يمتد ساعات عبر شوارع موسكو ، فهو يعرف حياتي ، وأنا أعرف حياته ، صداقة لا تنفصل ، فهي صداقة علمان بين الرابعة عشر • والسابعة عشر •

كذلك كنا نستعد معا لاختبار الدخول في منظمة الشباب ، وقبلنا فيها في وقت واحد تقريبا • ولكن نادرا ما كنا نتقابل في الأعوام الأخيرة ، فقد أنهى الفصل العاشر (أربع سنوات بعد الابتدائية) عندما اندلعت الحرب •

قال لى : اسمى : « تسال ، •• بيتر تسال » •

فرددت عليه : اسمى : « ليندين » •

ثم صممتنا •• ثم بدأ أكلام بصوت رزين : « متى وصلت » ؟

فقلت : « آه ! منذ بعض الوقت » •

كنت أتصور لقائى بصديقى « هلموت » الذى هو الآن « بيتر تسال » بعد غيبة طويلة ، بصورة مختلفة تماما • ولكن هاهو ذا الآن • التزم بقواعد النظام التزاما حرفيا — فقد أصبح فى الأعوام الأخيرة متحمسا للينينية — ولم يعد لى مفر من الالتزام بها أيضا •

لقد علمت قبل هذا ، ما سيكون عليه الوضع فى هذه المدرسة ، ولكن اذا لم أحصل على معلومات من « هلموت » فمن العسير الحصول على شىء من شخص آخر •

استيقظت فى الصباح على صوت جرس مزعج ، فوجدت أن كل من فى الحجرة قد نهض واقفا وصاح « هلموت » : « تمرين الصباح » • تجمع كل من فى المدرسة — بما فيهم المدرسون — فى فناء واسع ، ووقفوا فى مجموعات حسب جنسياتهم ، وصاح قواد المجموعات ببعض النداءات العسكرية • ثم وقفنا جميعا وقفه انتباه — كان هذا جديدا بالنسبة لى ، لأن ما أخذته — وأنا طالب — فى التدريبات العسكرية لم يكن سوى حصص معدودة ، ولم أكن أتصور مثل هذا فى مدرسة الحزب — ثم سرنا بالخطوة العسكرية المنتظمة الى ميدان التدريب الذى لا يبعد كثيرا عن المبنى الرئيسى •

كنا نبدأ كل يوم بتمرين الصباح : رياضة بدنية ، وتزاوف

ظهير . وقفز ، ومشى مسافات طويلة . وتسجل النتائج بدقة تامة ، يبدو أن للتمرينات الرياضية قيمة كبيرة في برنامج المدرسة .

وبعد تناول فطور حافل بالأنواع المتعددة — التبائن شاسع بين الطعام الجيد ، ورداءة أمكنة النوم — ذهبت الى السكرتارية ، ولم ألبث هناك دقائق حتى استدعيت للدخول على المدير . لم أعرف عنه شيئا سوى أنه يدعى « ميخايلوف » أو بمعنى أدق ، أنه يدعى في المدرسة بهذا الاسم .

ولم أعلم الا فيما بعد أنه بلغارى ، يتحدث لغات متعددة ، وأنه تقلد أثناء حرب أسبانيا مناصب هامة في مدارس الحزب ، وعلى الأخص في مدرسة الأمناء السياسيين . وكان محرر الجريدة الأسبانية (El Comisario) الأمين .

يشبه « ميخايلوف » في كثير من الصفات ، أصدقائي في المكتب السياسى في « كاراجندا » ويبدو عليه طابع موظفى المكاتب أو مديرى المدارس . لم يسأل الأسئلة الروتينية ليتلقى الأجوبة المحفوظة المكررة ، بل سار الحديث معه كما لو كان مسامرة عادية ، وفي ثنايا هذه المسامرة ، سألتنى عن عملى فى منظمة الشباب ، وعن دراستى . نعم لقد سألتنى أيضا عما اذا كنت قد احتملت وعتاء السفر ومتاعبه . ثم بعد ذلك كله دخل فى موضوع « مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية » حيث بدا لى أنه يريد أن يقف على معلوماتى السياسية .

— « هل اطلعت على المراجع الهامة للماركسية اللينينية » .
— « نعم ! طبعا » .
— « أى كتب « لينين » قرأت حتى الآن » ؟
— « لقد قرأت مجموعة كبيرة ، منها ما كان مقررًا فى المعهد العالى ومنها عن طريق قراءاتى الحرة . ومن هذه الكتب :

« ما العمل » ، « خطوة الى الامام ، خطوتان الى الخلف » ،
« حيلنا الديمقراطية الاشتراكية فى الثورة الديمقراطية » ، و...
قاطعتنى فسأل — بلهجة ودودة — جملة من الأسئلة ، تناولت الكتب أنتى سردتها عليه .

بان لى أنها لم تكن أسئلة « عادية » مثل تلك الأسئلة ، التى كانت

تلقى في دروس المعهد العالی ، بل كانت أدق صياغة ، بحيث يظهر مباشرة من الاجابة عليها ، عما كنت قرأت هذا الكتاب ، وفهمته ، أم لا ؟

أجبت على أسئلته باختصار ، سؤالاً بعد آخر ، فظهر لى أنه مسرور من هذه الاجابة ، ولم أعجز الا في سؤال واحد ، فقد تلجلجت في الاجابة عليه وهو : « ضد أى اتجاه أيديولوجى كان « لينين » في كتابه : « ما العمل » ؟

كان سؤالاً بسيطاً جداً بالنسبة للظروف السوفيينية ، ولكن غابت عنى الاجابة على هذا السؤال فجأة ، فلم أتذكرها .

تبسم ، ثم قال : « أنت تعرف هذا بالتأكيد ! ضد الاقتصاديين » •
لقد كنت أعلم هذا حقيقة • بدأت أشرح له المسائل التى تناولها « لينين » في هذا الكتاب ، ولكنه أسكتنى بإشارة من يده قائلاً : « يكفى هذا ، ستدرس هذه المسائل هنا بالتفصيل » •
ثم فتح موضوعاً آخر :

« كما ستعلم ! هذه مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية • نحن هنا نعد القيادات لدول مختلفة • هل أنت مستعد للعمل في ألمانيا » ؟
في ألمانيا ؟ كان هذا جديداً بالنسبة لى ، ولم أعلم اطلاقاً ، ماذا يعنى بهذه الجملة ؟ عمل غير شرعى ؟ عمل مع أسرى الحرب الألمانين ؟ عمل سياسى بعد هزيمة « هتلر » ؟

أجبتة : « هذا مسلم به طبعاً » •
نظر الى نظرة حادة :

« أيها الرفيق « ليندين » ان واجب كل تلميذ هنا ، الاستعداد للعمل في وطنه والشعور بالالتزامات الوطنية نحو بنى وطنه •
ويجب أن تعلم أن واجبك سيكون في ألمانيا ، ولذا فلا بد أن تهتم في المقام الأول بالمشاكل الألمانية » •

وانتهت المقابلة بذلك • سلم على بحرارة ، ثم تمنى لى نجاحاً سعيداً • علمت في اليوم التالى أن مدرسة الجبهة مقسمة الى أقسام تبعاً لجنسيات الدارسين • وكان من الملفت للنظر أنه كان هناك في عام ١٩٤٢ م قياديون من بلاد كانت في حالة حرب مع أو ضد الاتحاد السوفيينى ، ومن البلاد التى كانت واقعة تحت الاحتلال النازى : ألمانيون ، ونمساويون ، وألمانيون من مناطق شرق أوروبا ، وأسبانيون ،

وتشيكيون ، وسلوفاكيون ، وبولنديون ، ومجريون ، ورومانيون ، وبلغاريون ، وفرنسيون ، وإيطاليون •

ولكل مجموعة مدرس خاص ، ورئيس من الطلبة • كانت المجموعة الأسبانية أكبر المجموعات ، فقد كانت تضم ما بين ٣٠ و ٤٠ طالبا • وتضم المجموعات المتوسطة — الألمانىون ، والنمساويون ، والألمانيون من مناطق شرق أوروبا ، والبلغاريون — ما بين ١٥ و ٢٠ طالبا • وكانت المجموعات الأخرى أقل من ذلك عددا •

لم يمثل البريطانيون ولا الأمريكيون ، فى مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية ، وعلاوة على هؤلاء فقد كان هناك يوغسلافى واحد ، انضم الى مجموعة البلغارىين ، وأرجنتينية ، زوجة أحد زعماء الحزب الشيوعى فى الأرجنتين ، اشترك فى الحرب الأهلية فى أسبانيا ، ويدرس الآن مع زوجته فى مجموعة الأسبانيين •

كانت الدروس منفصلة ، لكل جنسية على حدة ، وكان الكل يجتمع فقط فى المحاضرات العامة ، التى تتناول موضوعات ذات أهمية عالمية ، حتى المجموعات الثلاث ، التى تتحدث لغة واحدة — الألمانىون ، والنمساويون ، والألمانيون من مناطق شرق أوروبا — كانت دروسهم منفصلة أيضا •

لم يكن انفصال النمساويين فى مجموعة واحدة مستغربا ، لأنه كان واضحا أن النمسا ينبغى أن تعود دولة مستقلة ، ولكن كان من الواضح أيضا أنه لم يتقرر بعد مصير الألمانىين من مناطق شرق أوروبا ، فهم ينجحرون من تشيكوسلوفاكيا والا ما كان لهم مجموعة خاصة لهم فى مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية •

ولم أعرف الا بعد أسابيع عديدة أن فى المدرسة — بجانب هذه المجموعات الاثنتى عشرة — مجموعات أخرى ، كان هناك مبنى صغير فى الطرف الآخر بعيدا عن المباني التى تقم فيها هذه المجموعات ، أحيط بسور خاص ، وحرم علينا الذهاب اليه • كانت الحواجز بيننا وبين من وراءه سميكة ماديا ومعنويا ، فلم يعلم أحد منا ما يدور خلف هذا السور ، ولا من يدرس فى هذا المبنى الصغير • ثم تسربت الأخبار شيئا فشيئا : يدرس فى هذا المبنى كوريون • ويعيشون منفصلين ، ولم يشتركوا معنا فى المناسبات العامة •

ليس من الصعب شرح أسباب هذه الاجراءات التحفظية على

الكوريين ، اذ كان الاعداد السياسى فى مدرسة الجبهة ، قاصرا على القياديين الشيوعيين من البلاد التى هى فى حالة حرب مع أو ضد الاتحاد السوفييتى ، ومن البلاد الواقعة تحت احتلال دول المحور . ولم يكن الاتحاد السوفييتى حتى عام ١٩٤٥ م فى حالة حرب مع اليابان ، بل عقد معها معاهدة عدم اعتداء وكانت بينهما علاقات دبلوماسية عادية ، وبناء عليه تحتم أن يكون اعداد الكوريين — الذين سيجهزون لا محالة للحرب ضد الاحتلال اليابانى — تحت ستار من السرية التامة .

لم يكن اطلاق الاسم الحركى قاصرا على الطلبة « الدارسين » بل كان للمدرسين أيضا أسماء حركية ، ولهذا لم أعرف — أثناء مدة دراستى فى المدرسة ، ولا بعدها بأعوام طويلة أسماء المدرسين الحقيقية . لم أعرف الا أسماء اثنين فقط (باستثناء المجموعة الألمانية) فى ١٩٤٥ من صورهم التى نشرت فى الصحف ، حيث تقلدوا مناصب عليا فى الحزب والحكومة . ومن هذا تأكدت أن مدير المدرسة كان « يعقوب بيرمان » الذى هو اليوم (١٩٥٤) عضو المكتب السياسى فى حزب العمال البولندى المتحد ، ونائب رئيس وزراء جمهورية بولندا الشعبية . درس « يعقوب بيرمان » فى شبابه القانون فى جامعة « وارسو » ، وكان أحد زعماء الحركة الطلابية الثورية البولندية ، وعقب هذا مباشرة أصبح عضوا فى زعامة الحزب البولندى .

وبعد حل جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية فى عام ١٩٤٣ ، صار الموجه لتأسيس وحدة الوطنيين البولنديين فى الاتحاد السوفييتى ، واشترك فى الفرقة البولندية (Kostijuschko) التى تدربت فى الاتحاد السوفييتى ، ثم أصبح فى عام ١٩٤٤ نائب وزير الخارجية فى الحكومة المؤقتة فى « لوبلين » .

كذلك رأيت أيضا صورة قائد المجموعة النمساوية فى مدرستنا فيما بعد فى الجرائد . كان اسمه الحقيقى « فرانس هونر » انضم الى الحزب الاشتراكى النمساوى فى عام ١٩١٨ ، ثم انتقل الى الحزب الشيوعى فى عام ١٩٢٠ م واعتقل فى اضطرابات عام ١٩٣٤ ، ولكنه تمكن من الهرب الى الاتحاد السوفييتى . ثم اشترك فى الحرب الأسبانية مع المجموعة النمساوية ضمن الفرقة العالمية ، وعاد الى الاتحاد السوفييتى بعد انهيار الجمهورية الأسبانية فى عام ١٩٣٩ م .

وعندما حلت جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية — وبالتالى المدرسة —

في مايو سنة ١٩٤٣ م ذهب الى موسكو ، ثم انضم فيما بعد الى فرقة التحرير النمساوية ، التي كانت تعمل تحت قيادة الجيش اليوغسلافى ، الذى قاد حرب العصابات ضد جنود الاحتلال .
تقلد « فرانس هونر » وزارة الداخلية لفترة وجيزة فى الحكومة النمساوية المؤقتة .

لم أسمع شيئاً اطلاقاً عن المدرسين الآخرين — باستثناء مدرس المجموعة الألمانية — بعد أن تركنا المدرسة . غير أنه من المؤكد : أن هؤلاء المدرسين كانوا من زعماء القمة — المؤهلين تأهيلاً عالياً — فى الأحزاب الشيوعية فى بلاد مختلفة ، ويتولون الآن لا شك كل المناصب العليا فى بلادهم — اذا لم يكونوا قد سقطوا ضحايا احدى حركات التطهير العديدة التى وقعت بعد هذا التاريخ .

* * *

المجموعة الألمانية

كان قائد مجموعتنا ومحاضرها الأصلي رجلاً يبلغ من العمر ٤٠ عاماً ، عينونه سوداء ناعسة ، يتحدث الألمانية بلهجة سكان جنوب ألمانيا ، واسمه الحركى « كلاسنر » ، كان النموذج الكامل للمثقف فى « الستالينية » . اذ كانت معلوماته واسعة ، وعميقة ، ليس فقط فى دائرة « الماركسية — اللينينية » ، وتاريخ جبهة لأحزاب الشيوعية العالمية ، والحزب الشيوعى الألمانى ، بل فى التاريخ الألمانى والفلسفة ، وزيادة على ذلك فقد اهتم لمدة سنوات عديدة ، بمسائل منطقة البلقان . لم يدع شيئاً يهز مركزه على الاطلاق ، فقد كان مستعداً للتضحية بأعز أصدقائه وزملائه ، اذا طلبت منه الزعامة ذلك . كان حريصاً جداً باستمرار ، فلم يتفوه بتعبير دون أن يفكر فيه ويزنه قبل أن ينطق به . كان يختار الكلمات الدقيقة ، ويمكن للمرء أن يجزم بأنه كان متقناً على طول الخط مع الاتجاهات الرسمية .

مكنه تفوقه فى الذكاء من ملاحظة أى اشارة بسيطة لتغيير الاتجاه « الأيديولوجى » فى الوقت المناسب ، والتصرف بسرعة طبقاً لمقتضيات الاتجاه الجديد . وكان مستعداً لتغيير رأيه من يوم لآخر تبعاً لتغيير الخط السياسى ، والدفاع عن الاتجاه الجديد بأسلوب منطقى براق ، ومحاولة رفعه الى عنان السماء ، على الرغم من أن ذلك مخالف لما قاله فى اليوم السابق . كان محاضراً ممتازاً ، يضع علمه النظرى الكبير —

دون مبالاة — في خدمة الأوامر الصادرة اليه ، يقيم الدليل على صحتها ،
ويشرحها ، ويعمل لها دعاية كبيرة •

لم أعرف آنذاك اسمه الحقيقي ، ثم علمت فيما بعد أنه « باول
فانديل » ينحدر من « مان هايم » درس في مدرسة « لينين » في موسكو ،
ثم التحق أخيرا بجهاز جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية ، فعمل مع
« فيلهلم بيل » في قسم شؤون البلقان • ثم أصبح بعد عام ١٩٤٥ م
رئيس الإدارة المركزية للتثقيف الشعبي ، ثم وزيرا للثقافة في حكومة
المنطقة الألمانية الواقعة تحت الاحتلال السوفييتي • وفي عام ١٩٥٢ م
أزيح من الحكومة ، فأصبح رئيس قسم الرقابة والتنظيم للتعليم ،
والعلوم ، والفن • ومنذ عام ١٩٥٣ م سكرتيرا للجنة المركزية « للاتحاد
الاشتراكي الألماني » •

كان نائب رئيس المجموعة الألمانية في مدرسة الجبهة هو « برنارد
كونين » من القادة العماليين المسنين ، حاول أن يتقف نفسه لينسجم
موقفه مع الجو الذي يعيش فيه فتطلب ذلك منه جهدا كبيرا •

كان عضوا في الحزب الاشتراكي منذ عام ١٩٠٧ م • ثم انتقل
في عام ١٩١٧ م الى الحزب الاشتراكي الديمقراطي المستقل • وكان
رئيس النقابة العمالية لشركات « لوينا » عندما قامت ثورة أكتوبر
عام ١٩١٨ م •

ظل « برنارد كونين » مدة بعد عام ١٩١٨ م في الحزب الاشتراكي
الديمقراطي المستقل ، ولكنه انتقل في عام ١٩٢٠ م الى الحزب الشيوعي
الألماني • اشترك بنصيب لا بأس به في الكفاح الثوري في الفترة
من ١٩١٩ م الى ١٩٢٣ ، وفي اضطرابات عام ١٩٢١ م ، وفي الحكومة
العمالية ، قصيرة الأجل التي تكونت في منطقة « زاكسين
وقورينجن » في عام ١٩٢٣ م •

أحس المرء بأن عنده الثورة العمالية الحقيقية على عكس ما كان
« كلاسنر » ، فقد ظل حتى الآن بعيدا عن نموذج « الستالينيين » الذين
يراقبون كل تغيير ، ويسيروا في ركابه • لم ينجح أبدا في إخفاء
أنفعالاته عند كل تغيير سياسي ، أو في أن ينسجم بسرعة مع الخط
الجديد ، كما كان يفعل « كلاسنر » •

لم أنس مشهدا حدث بيني وبينه ، فقد كان « كلاسنر » يكلفني —
بالاشتراك مع « برنارد كونين » وزوجته « فريدا » (التي كانت معنا

الذين كانت لديهم معرفة بسيطة باللغة الروسية — بترجمة بعض المقالات الهامة من جريدة «برافدا» •
و ذات يوم ترجمت مقالا من «برافدا» يتحدث عن كفاح الروسيين والبولنديين والشعوب السلافية الأخرى الخالد المشترك ضد الألمانين •
ترجمت دون تردد :

« يدور المقال حول أخوة السلاح الخالدة فى الكفاح ضد الألمانين الأعداء الخبيثاء للشعوب السلافية ، من قديم الزمان » •
نظر الى «برنارد كونين» فزعا ثم صاح :
« قف ! قف ! لقد ترجمت خطأ ، لا يمكن لك أن تقول هذا ، ترجم الجملة مرة أخرى » !
أعدت قراءة نفس الجملة •

كان «برنارد كونين» مضطربا :
— « أليس فى المقال شيئا عن الاستعمار الألمانى ، أو عن الطبقة الحاكمة فى ألمانيا » ؟
— « لا يا «برنارد» ! فالحديث هنا ببساطة عن الألمانين » •
— « هذا غير ممكن » !

ودون أن أتفوه بكلمة ، أريته الجملة فى «برافدا» ، وفى نفس الوقت جملا أخرى تتحدث عن الألمانين كأعداء خبيثاء من قديم الزمان للشعوب السلافية » •

اصفر وجه «برنارد» ولم يقل شيئا • ومما لا شك فيه أنه لم يكن من السهل عليه — كعامل ثورى قديم — أن يصبح عميلا «ستالينا» ، يدافع عن الاتجاه السياسى للقيادات العليا بدون قيد ولا شرط •
اعتقل جهاز المخابرات «برنارد كونين» أثناء حركة التطهير الكبرى فى الفترة من عام ١٩٣٦ الى ١٩٣٨ م • وفقد احدى عينيه فى السجن ، ثم أفرج عنه عن طريق وساطة أحد زعماء الحزب • وبعد ذلك استمر فى خدمة «الستالينية» •

أصبح «كونين» بعد عام ١٩٤٥ م سكرتير الاتحاد الاشتراكى الألمانى فى منطقة «زاكسين» ، وتولى منصب سفير المنطقة السوفيتية (ألمانيا الديمقراطية) فى براغ عام ١٩٥٣ • وهو «لا شك» انخفاض فى درجته فى سلم المناصب •

(م ١٦ — نظام الحكم الشيوعى)

كان عندنا بجانب المحاضرين الرئيسيين « باول فانديل » (كلاسنر) ،
و « برنارد كونين » — معيدة ، كانت تدعى في المدرسة « لينى رينج »
قابلتها بعد عام ١٩٤٥ م في المنطقة السوفييتية باسم « لينى برج »
كانت مدرسة في مدرسة « كارل ماركس » التابعة لحزب « الاتحاد
الاشتراكي الألماني » ، ثم أصبحت بعد ذلك اليد اليمنى لـ « برنارد
كونين » في قيادة الاتحاد الاشتراكي الألماني في مدينة « هاللى » .
كان عدد الطلبة في مجموعتنا من ١٨ — ٢٠ طالبا تقريبا ، وكان
بعضهم من المتقدمين في السن ، الذين التحقوا بالحزب الشيوعي
الألماني قبل عام ١٩٢٣ ومنهم :

• « أوتو » من هامبورج .

• « فيلى » من برلين (لم أعرف اسمها الحقيقي حتى الآن)
وكان كلاهما في « رابطة كفاح الجبهة الحمراء » وقانلا معا مع
الفرقة العالمية في الحرب الأسبانية .

• « آرتور » واسمه الحقيقي « هاينز هوفمان » .

كان في أسبانيا مستشارا سياسيا للفرقة رقم ١١ . وأصبح بعد
عام ١٩٤٥ م جنرالا ورئيس كلية الشرطة ، ثم نائبا لوزير الداخلية
في ألمانيا الديمقراطية .

« لينى برنز » كانت تقوم بنشاط قبل عام ١٩٣٣ م ، وقامت
بعمليات خاصة ، حتى في اليابان . أصبحت بعد عام ١٩٤٥ مدرسة في
مدرسة (SMA) ، وفيما بعد في جمعية الصداقة السوفييتية الألمانية
في برلين الشرقية ، وبعد ذلك في وزارة الخارجية في ألمانيا
الديمقراطية .

كان معظم المجموعة الألمانية في مدرسة الجبهة من الشبان — مثلى ،
رفقاء صغار وأعضاء في منظمة الشباب — الذين نشأوا في الاتحاد
السوفييتي ، قابلت هنا كثيرا من أصدقائي من بيت الأطفال رقم ٦ ،
ومن مدرسة « كارل ليبكنيثت » .

بجانب « ميشا فولف » و « هلموت جنيس » و « جان فولجيلر »
وقد تحدثت عنهم سابقا وهم يدعون في المدرسة « فورستر » و « تسال »
و « دانيلوف » — قابلت أيضا :

« ماريانى فاينرت » بنت الشاعر الشيوعي المشهور « ايريش .

فاينرت « وقد تعرفت عليها في عام ١٩٣٢ م أيام أن كنا أطفالا في برلين ،
كنا نسكن في حي الفنانين عند ميدان « برايتن باخ » .

« ايمى » و « الزى شنتسر » . كان والدهما عضو الحزب الشيوعى
في البرلمان الألمانى ، واغتاله النازيون .

كان لى أصدقاء كثيرون في المجموعة النمساوية : وتعود صداقتنا
الى الأيام التى كنا نقيم فيها في بيت الأطفال رقم ٦ :

« رودى سبيريك » ابن أحد قادة رابطة الدفاع الديمقراطية
الاشتراكية ، الذى سقط قتيلًا في كفاح فبراير عام ١٩٣٤ م .

« تونى ثلوجل » من « سان بولتين » .

« آليس كلوك » يبدو أن الدراسة كانت صعبة عليها في مدرسة
الجبهة ، واضطرت فيما بعد الى الالتحاق باحدى المدارس التابعة للحزب .

« هانز شايشينبرجر » ، وكنا نسميه في بيت الأطفال « زنجى »
مداعبة ، بسبب هيئته ، ولا زال له حتى الآن هذه الساحرة القديمة .

ولم أعرف أحدا من المجموعات الأخرى ، الا أنى رأيت في اليوم
الثالث فتاة أسبانية ، رائعة الجمال ، فخيل الى أنى أعرفها من قبل ،

ثم عرفتها ، فقد كانت « أمايا ابرورى » بنت « دولورس ابرورى »
سكرتيرة عام الحزب الشيوعى الأسبانى . استطاعت في سنوات قليلة أن

تقفز من مجرد عضو قيادى صغير في الحزب الشيوعى الى أشهر امرأة في
الجمهورية الأسبانية : « سينيورا » .

وبعد القضاء على الجمهورية الأسبانية ، جاءت مع ابنتها وابنها
الى الاتحاد السوفيتى ، كان ابنها يقاتل مع الجيش الأحمر ، فسقط في

نوفمبر سنة ١٩٤٢ م عند « ستالينجراد » أما ابنتها فتدرس معنا الآن
في مدرسة الجبهة ، واسمها الحركى « مايا روين » .

لم تكن بنت « السينيورة » هى الشخصية الوحيدة — من الشخصيات
البارزة — في مدرستنا ، فقد لفت نظرى في حجرتنا ، رفيق شاب ، فقد

احدى زراعيه ، كان يتكلم الروسية بطلاقة ، وحكى مرة — دون أن يتذكر
نظام المدرسة — في صالة النوم ، أنه قاتل في الجبهة في عام ١٩٤١ م ،

وفقد احدى زراعيه في المعركة . وبدا عليه أيضا أنه ليس من الأشخاص
الذين ينطوون بسهولة ، ولم يأخذ كل أنظمة المدرسة مأخذ الجد . فسمح

له بطريقة أو بأخرى بأشياء لم تكن مسموحة لنا .

تعجبت من هذا ، وذات يوم دخل الحجرة ، فصاح الجميع :
« شاركو ! .. هل من جديد » ؟
تعرفت عليه ، وبدأت أتقرب منه ، ولم يمض وقت طويل حتى
صرح لى باسمه الحقيقي : لقد كان ابن « تيتو » .

* * *

ما تعلمناه في مدرسة الجبهة

كما حدد لى سابقا الوجهة التي ينبغي أن أسافر اليها فيما بعد ،
علمت الان أيضا ، ما ينبغي أن نتعلمه في المدرسة :
فاندراسة في المدرسة عبارة عن سلسلة من المحاضرات في موضوع
ما ، وتستمر غالبا أسبوعين أو ثلاثة — وأحيانا أطول من ذلك — ثم في
نهايتها يعلن عن الموضوع التالي .

درسنا في العشرة اشهر التي قضيتها في المدرسة الموضوعات التالية :
تاريخ الحزب الشيوعي الألماني ، وتاريخ الحزب الشيوعي
الروسي ، الجمهورية الفايهرية ، الفاشية ، طبيعة وتطور الحرب
العالمية الثانية ، الاقتصاد السياسي ، المادية التاريخية الجدلية ،
تاريخ الشيوعية العالمية ، نظرة في تاريخ ألمانيا .

ألقى عدد من المحاضرات عن كل موضوع ، وكان يقوم بالقائها :
« باول فانديل » وأحيانا « برنارد كونين » ، أو « لينى برج » وبالإضافة
الى ذلك ، فقد ألقى رفيق مجرى بعض المحاضرات في موضوعات تاريخية .
وفي نهاية كل محاضرة يتلو المحاضر علينا عددا من المراجع ، التي
يجب أن نرجع اليها استعدادا للمناقشة في الحلقات الدراسية ، وكما
هو الحال في المعاهد العليا السوفييتية فقد قسمت المراجع الى ما يسمى
« المراجع الضرورية » التي لا بد من الرجوع اليها ، والمراجع الاضافية ؛
التي يرجع المرء اليها في نظريات خاصة .

حدد لكل مرجع عدد الساعات الواجب قضاؤها في قراءته ، حتى
يلم بالمطلوب ، وكنا ملزمين بتقيد ذلك في مفكرة ، تخضع لرقابة شديدة ،
وبعد المذاكرة تعقد حلقات الدراسة التي تستمر ثلاث ساعات وأحيانا
أكثر من ذلك .

وكان هناك أيضا محاضرات عامة لجميع المجموعات ، وكانت تلقى
في المكتبة أو في صالة المطعم ، لأنه لم يكن هناك قاعة محاضرات كبيرة .
ألقى مدير المدرسة الرفيق « ميخايلوف » محاضرات عن تاريخ

الشيوعية العالمية ، وكانت ممتازة حقا ، فلم أسمع لا قبلها ولا بعدها ما يدانيها .

كان يتحدث بالروسية وجلس في مقدمة الصفوف ، الطلبة الذين كانوا يتقنون الروسية ومعظمهم من الشبان ، بينما ترجمت المحاضرة لرفقاء وكبار السن — حيث جلسوا على مناضد أخرى كل مجموعة على حدة — الى : الأسبانية ، والألمانية ، والفرنسية ، والايطالية ، والرومانية ، والتشيكية ، والسلفاكية ، والبولندية ، والمجرية . وسارت الترجمة الفورية دون ضوضاء ، لأن كل مجموعة جلست على منضدة بعيدة عن المجموعة الأخرى . ثم تلا المحاضرة حلقات دراسية لكل مجموعة ، تولى كل محاضر شرح المحاضرة العامة لمجموعته في هذه الحلقات .

كان موضوع تاريخ الشيوعية العالمية ، من أهم الموضوعات التي درسناها في المدرسة ، فقد شرح تطور الأحزاب الشيوعية في الدول المختلفة ، كل على حدة ، والنضال والأحداث الثورية ابتداء من عام ١٩١٩ م شرحا وافيا لدرجة أننا كنا نحس أننا عشنا هذه الأحداث : ثورة « سبارتاكوس » والنضال في « الرور » ووسط ألمانيا ، أحداث الثورة في بولندا ، موجة الاضطرابات الضخمة عام ١٩٢٠ م في ايطاليا ، استيلاء « موسوليني » على السلطة ، النضال في بلغاريا عام ١٩٢٣ م ، الفترة التي يطلق عليها « الاستقرار النسبي » ١٩٢٤ — ١٩٢٩ ، الأزمة الاقتصادية العالمية ، استيلاء « هتلر » على السلطة — شرحت لنا هذه الأحداث في المحاضرة شرحا مفصلا ، غير أنه — كما تأكدت فيما بعد — كان بالطريقة « الستالينية » التي كانت تزيف الحقائق .

كذلك تناولت الدراسة أيضا بالتفصيل ، الحركات الثورية في البلاد المستعمرة ، وفي آسيا : : ثورة « كمال أتاتورك » في تركيا ، الحركات المناهضة للاستعمار في شمال افريقيا ، حركة « غاندى » في الهند ، تطور الأحزاب الشيوعية في اليابان وأندونيسيا ، وقبل هذا كله ، تطور الثورة الصينية .

لم يلق « ميخايلوف » كل المحاضرات ، التي نتناول الموضوع الشيوعية العالمية ، بل اشترك معه « يعقوب بيرمان » و « هونر » أو « باول فانديل » . كان القاءهم رائعا مثل « ميخايلوف » — وعلى الأخص « بيرمان » — الكلمات واضحة ، والأسلوب شيق ، والمعلومات

غزيرة ، على عكس الدروس المملة ، ذات النغمة الواحدة ، التي كنا نعرفها جيدا من الاحتفالات والاجتماعات التي تقام « لفرد السوفييتي العادي » .

كان أهم الدروس التي شغفت بها في مجموعتنا الألمانية المناقشة السياسية والأيدولوجية حول النازية . أما الموضوعات الأخرى — المادية التاريخية الجدلية ، والاقتصاد السياسي و . . . الخ — فقد أخذتها في المعهد العالي في محاضرات عن « أسس الماركسية — اللينينية » فلم تكن جديدة بالنسبة لى ، وعلى العكس من ذلك : كانت المناقشة السياسية مع الأيدولوجية النازية ، جديدة كل الجدة بالنسبة لى .

كان موضوع سلسلة كبيرة من المحاضرات : تاريخ الحزب النازي ، و « هتلر » في شبابه ، والتنظيمات النازية الأخرى ، كذلك تاريخ حياة زعيم النازية وكانت النقطة الصعبة ، هي تحليل جوهر النازية ، والأسباب التي أدت الى استيلاء « هتلر » على السلطة .

درسنا الأيدولوجية النازية بالتفصيل — نظرية تفوق السلالات البشرية ، نظرية أماكن التجمع البشري ، النظرية النازية للتاريخ . . . الخ — من المصادر النازية ، وتعمقنا فيها لدرجة أنني بعد عام ١٩٤٥ م ، عندما قابلت ذات مرة نازيا حقيقيا ، تأكدت أنني أفوقه بمراحل في معرفة نظرياتهم .

كنت أتعجب دائما من حرية التفكير والواقعية ، التي كنا نمارسها — أثناء الحرب التي هي حياة أو موت — في مناقشة النازية وأيدولوجيتها . وغالبا ما كان يكلف أحدنا بالقاء محاضرة أمام الطلبة عن دعوى معينة في الأيدولوجية النازية ، بينما يكون من واجب الآخرين ، مناقشة هذه الدعوى ، واضعاف الأدلة النازية . وعلى المحاضر في هذه اللحظة أن يدافع عن النازية دفاع المستميت ، المقتنع بصحة دعواها ، وتتعلق درجة تقديره ، بمقدار استطاعته في الدفاع عن النازية .

كان يحدث أحيانا أن يأخذ « كلاسنر » بنفسه دور المحاضر والمدافع عن النازية ، وكان يشرح الدعوى بطريقة لبقة — ربما أكثر لباقة ، مما يستطيعه معظم النازيين أنفسهم — فيتعذر علينا الاتيان بحجة تبطل دعواه .

ولكن كان لحرية الفكر (لم نقرأ المراجع النازية فقط ، بل شروح وبحوث من الأحزاب الوطنية ، والأحزاب الديمقراطية الاشتراكية في

بلاد مختلفة ؛ كذلك النشرات الدورية البابوية) — كان لهذه الحرية — حد ، فعندما كنا نندمج في مناقشة أيديولوجية سياسة أخرى ، ويبدو أنها ستؤثر على أفكارنا (ولكن يكن في ادراكنا ، أن هذا يرتبط بأى خطر بالنسبة لنا ، لأنه لا أحد منا كان باستطاعته التأثير لحظة واحدة، بهذه المفاهيم) كانت تضرب حولنا التحفظات الشديدة ، وخاصة اذا كان الموضوع يتعلق بأراء المجموعة الشيوعية المعارضة ، اذ يتوقف كل تسامح عند هذه النقطة ، فلا نتعمق في دراستها ، ولا نقرأ من مراجعها شيئاً •

سمعنا أسماء مثل : « براندر » و « تالهايمر » و « روت فيشر » و « ماسلوف » و « كورث » و « كاتس » ومعارضين آخرين انفصلوا في العشرينات مع بعضهم ، ومعهم أتباعهم من الحزب الشيوعي الألماني ، أو طردوا منه ، وكونوا تنظيمًا معارضا • ولكن ماذا كان اتجاه هذه المجموعة ، وماذا كانوا يريدون ؟ لم نسمع كلمة عن هذا •

وجدت هذا أيضا مع المجموعة المعارضة داخل الحزب البلشفي ، فم نقرأ الا سطرًا عن المراجع الأصلية التي كتبت عن المعارضة العمالية بزعامة « ثلابنيكوف » ، وعن مجموعة « المركزية الديمقراطية » بزعامة « أوسينسكى » وكذلك عن « التروتسكيين » و « البخاريين » • ولاحظت هذا في الدروس والحلقات الدراسية ، وخاصة فيما يتعلق بـ « التروتسكيين » •

انقلب محاضرتنا « كلاسنير » الى شخص آخر ، عندما تناول هذا الموضوع ، اذ صب جام غضبه على هؤلاء ، وبدلا من أن يأتي بحجج وبراهين موضوعية ، تدفقت كلمات السباب واللعن على هؤلاء (ولم يظهر هذا النوع من الهجوم في مدرسة الجبهة ، الا عند تناول موضوع من هذه الموضوعات) • ثم أخذنا المراجع لموضوع « التروتسكيين » ولم تكن سوى مواد مكررة ، مجموعة من أقوال « لينين » ضد « تروتسكى » (ومن الطبيعى أن أقواله التي كانت مدحا في « تروتسكى » قد أهملت) ، وفقرات من كتب « ستالين » • ولم يكن فيها سطر واحد من أقوال « تروتسكى » ! وبينما كانت الحلقات الأخرى ، تشير الى مكانة « تروتسكى » بعين الاحترام ، كانت حلقتنا عن « التروتسكية » لعنا وسببا •

لم أستطع تفسير ذلك آنذاك ، على الرغم من أن الأسباب كانت

في متناول اليد • ولم يسمح لنا بمعرفة آراء التنظيمات المعارضة ، لأن فيها أشياء تهدد النظام « الستاليني » • وكانت الزعامة « الستالينية » ندرك أنه لا خطر من أن نقرأ خطب « هتلر » و « جوبلز » ، ونشرات الأحزاب الوطنية أو النشرة البابوية ، لأن من الثابت أنها لن تؤثر علينا أقل تأثير • ولكن كتب « تروتسكى » ونشرات التنظيمات المعارضة لـ « ستالين » التي تتقد وتهاجم النظام « الستاليني » من وجهة نظر « الماركسية » ، فهي — لاشك — ستترك أثرا عندنا — وربما نقتنع بوجهة نظر هؤلاء •



مشاكل العصر السياسية

درسنا مشاكل العصر السياسية ، بجانب النظريات السياسية ، فقد كانت قواعد غير مكتوبة ، أننا يجب أن « نربط النظرى بالعملى » ، وهكذا تناولت المجموعات في مناقشاتها الأحداث السياسية المعاصرة ، اذ نوقش في كل مجموعة الوضع الراهن في بلدها ، وواجبات الشيوعيين ازاءه • كانت قاعدة هذا الموضوع في مجموعتنا الألمانية . هو مادة عما كان يسمى « مناقشات مؤتمر اسلام العالمى » فى ألمانيا . الذى عقد — كما زعم — فى نوفمبر عام ١٩٤٢ فى احدى مدن منطقة « الرور » • وقيل لنا : انه وضع فى هذا المؤتمر غير القانونى (اى سوى بعيدا عن عين السلطة الحاكمة) — الذى اشترك فيه حوالى ٣٠ شخصا ، من بينهم ممثلون عن النقابات ، وأعضاء من الحزب الشيوعى الألمانى ، ومن الحزب الاشتراكى الألمانى ، وقانونى ، وبعض المثقفين الوطنيين — برنامج لانهاء الحرب والاطاحة « بهتلر » •

راودنى شك كبير آنذاك فى أنه قد انعقد مثل هذا المؤتمر ، ولم أكن الوحيد ، الذى شك فى هذا الخبر • كان الشك يفوق تطابق الشرح مع « الخط الصحيح » (وعلى فكرة ! فقد علمت بعد عام ١٩٤٥ م أن مثل هذا المؤتمر لم ينعقد ، ولم يعد يذكر شىء عنه الآن فى الاتحاد السوفييتى) •

لم توات الشجاعة أحد آنذاك فى أن يعبر عن شكه فى « مناقشات غرب ألمانيا » واعتبر « البرنامج المزعوم » أساسا لكل دراسة برمتها • امتدت الحلقة — التى تناولنا فيها دراسة هذه « المناقشات » ، والقرار المزعوم الذى اتفق عليه المؤتمر بعد مناقشتهم — أسابيع •

دعت « مناقشات غرب ألمانيا » الى تكوين « لجان شعبية » ،
وبناء عليه فقد وجب علينا دراسة كل ما يتعلق بهذه اللجان •

كان موضوع « مشاكل العصر السياسية » أضعف موضوع في
مدرسة الجبهة • كانت كل المجموعة الألمانية تقريبا من الذين اضطروا
الى ترك ألمانيا وهم أطفال ، ولهذا لم يكن عندهم أى فكرة عن النشاط
في ألمانيا •

تركت « لينى يريج » ألمانيا بعد استيلاء (هتلر) على السلطة
بعام ونصف ، ولكن لم توضح لنا — ولا يمكن أن توضح — شيئا عن
الوضع في ألمانيا في عام ١٩٤٢ م •

تحدث المشتركون في الحلقة بحماس عن لجان شعبية « سرية » في
المدن الألمانية المختلفة ، وفي المناطق الريفية • وناقشوا قوتها وفعاليتها
العملية •

كان عملنا هذا ساذجا الى أقصى حدود السذاجة ، فقد بدأنا بعمل
أهم التقارير عن مدينة معينة في ألمانيا مثل : التركيب الاجتماعى ،
والنسبة المئوية للعمال والمثقفين ، وعن نتيجة انتخابات عام ١٩٣٢ م في
هذه المدينة ، وعن التركيب الدينى ، وعن الاقتصاد وفروعه ، وعن عدد
الغارات الجوية التى شنت على المدينة ، موضع البحث •

وجب علينا — بعد هذا التقرير — أن نكون لجنة شعبية « حقيقية »
— كانت العملية أشبه ما تكون بحل ألغاز الكلمات المتقاطعة — ، مع تحديد
الحجم الذى ينبغى أن تكون عليه هذه « اللجنة الشعبية » ، وعدد
العمال والمستخدمين والمثقفين فيها ، وميولهم الحزبية السياسية السابقة ،
الى انضمامهم لهذه اللجنة •

لم تكن المسألة سهلة ، فمن كون لجنة شعبية ، ونسى مفكرا أو
محاميا ، عنف بسبب انحرافه الى « المذهبية » و (التقليل من قيمة
الاحلافاء في الكفاح ضد هتلر » ، ولكن اذا ضم واحد عددا أكبر من
اللازم من المحامين والعلماء الى « اللجنة الشعبية » اتهم بـ « التحيز
الطبقي » و « التقليل من قيمة دور الطبقة العمالية » •

حول هذا الأسلوب من العمل أولئك الذين كانوا ضعاقا في حلقات
الدراسة السياسية الجادة — مثل « ايمى شتتسر » و « أوتو » — الى
مهرة حقيقيين في تكوين « اللجان الشعبية » •

أما الآخرون انذين أخذوا المسألة مأخذ الجد ، فقد شعروا بالحيرة ، وهم يحاولون تكوين « لجان شعبية سرية » على الورق : لتعمل في مدن منطقة « الرور » أو في مدن جنوب ألمانيا ، بينما هم جالسون في « فيلا » آيلة للسقوط في الطرف الأقصى من منطقة « بشكيرين » • كان التدريب على كتابة المنشورات أكثر جدية من هذا العمل الذي لا يخرج عن كونه لعبة حل ألغاز الكلمات المتقاطعة • كان مفروضا علينا أن نكتب في مدى نصف ساعة منشورا « سياسيا مضبوطا » في موضوع محدد ، ولم تكن تلك الموضوعات ، التي تحددت لكتابة المنشورات فيها سهلة فعلى سبيل المثال :

قرىء علينا في أوائل أكتوبر سنة ١٩٤٢ م بيان « جورنج » عن زيادة حصص التموين في ألمانيا ، وطلب منا أن نؤلف منشورا حول هذا الموضوع ، ونركز فيه على تبديد الأمانى المتخيلة ، الذي قد يحدثها هذا البيان بين أفراد الشعب •

قرئنا منشوراتنا في حلقات خاصة ، واحدا بعد الآخر ، ونوقشت كل نقطة في كل منشور ، ثم تبع ذلك نقد من المدرس • ونظرا لأننا كنا نعمل هذا التمرين بكثرة ، وناقش المنشورات بدقة ، فقد أصبحنا في مدة قصيرة ، قادرين على تأليف منشورات واقعية في أى موضوع •

لم نناقش منشوراتنا فقط ، بل كنا نحصل أيضا من القسم السياسى للجيش الأحمر على المنشورات التي كان يلقيها في الجبهة • وكان من واجبنا تحليل منشورات الجيش الأحمر تحليلا كاملا : ولا نقصد في نقدها • كان هذا جديدا بالنسبة لى ، فلم يطلب منى في الاتحاد السوفييتى حتى الآن التعبير عن رأى حول موضوعات صادرة من « الجهات العليا » •

كنا نقرأ بانتظام المنشورات السوفييتية وناقشها ، وكنا نصرح بأننا نرى أنها ضعيفة ، وتأكد هذا الرأى عندما ازداد عدد أسرى الحرب ، وكان سببا في إعادة تنظيم جهاز الدعاية السوفييتية ، وفي تكوين اللجنة الوطنية المعروفة باسم « ألمانيا الحرة » •

قرأنا بشغف المنشورات التي كتبها الأسرى أو الجنود والضباط الألمان الذين هربوا ، ولجأوا الى الجانب السوفييتى • كانت هذه لغة مختلفة تماما ، لفتت نظرنا في كتيب ألفه نقيب يدعى « دكتور أرنست

هادرمان « تحت عنوان : « كلمة نقيب ألماني » ، وفي منشور كتبه :
« هاينريش جراف فون آين زيديل » الحفيد الثاني لـ « بسمارك » •
تأكدت هذه الملاحظة فيما بعد ، فقد كان دكتور « أرنست هادرمان »
و « هاينريش جراف فون آين زيديل » من مؤسسي اللجنة الوطنية
« ألمانيا الحرة » •

لم نتعلم فقط كيف نكتب المنشورات ، بل علمونا أيضا ، كيفية طبع
المنشورات في سرية تامة ، في أصعب الظروف التي تباشر فيها الحركات
السرية عملها • ووجد أيضا في داخل مدرسة الجبهة — التي هي بطبيعة
الحال سرية — معمل كيماوى سرى • ولم يسمح لنا بدخوله الا عندما
كنا نكلف « بطبع المنشورات السرية » •

كان التعليم باللغة الروسية مرتين في الأسبوع ، وكنا نتعلم طبع
المنشورات بكل الطرق ابتداء من الطرق البدائية (صنع حروف كبيرة
من الصلصال ، ويمكن طبع ١٠٠ نسخة فقط بواسطتها) حتى طرق
التصوير المعقدة ، التي صممت لاجراء أعداد كبيرة من المنشورات
والجرائد — حتى الصور و « الكاريكاتورات » — بحروف صغيرة جدا
ولكنها واضحة تقرأ بسهولة •

شرحت لنا كل طريقة بالتفصيل ، حتى كيفية تجهيز الآلات اللازمة ،
الى أن كان في استطاعة كل واحد منا ، أن يقوم بكل المراحل اللازمة
لاخراج المنشورات • كانت دراسة هذا الموضوع عميقة ، ولكنه لم
يسمح بتقييد ملاحظات في كراساتنا ، بل وجب علينا أن نحفظ كل شيء
عن ظهر قلب •

لم يرسل أحد منا — حسب ما أعلم — بعد حل مدرسة الجبهة الى
عمل من الأعمال السرية ، ولهذا فليس لدى المتخرجين اليوم سوى
معلومات ضئيلة من تلك الحصص المهمة التي تعلمنا فيها أشياء ، لم
نطبقها عمليا قط •

تقينا محاضرات — بجانب دراسة « مشاكل العصر السياسية »
التي مكنتنا من فهم الوضع في ألمانيا ، وهيأتنا للقيام بأعمال مستقبلا
في ألمانيا — في « السياسة الحالية » في الاتحاد السوفييتي أيضا •
لم يكن موضوع « السياسة الحالية » — كما يظن المرء — نوعا من
مقتطفات من الصحف أو نظرة عامة في الحوادث اليومية في الاتحاد
السوفييتي ، بل دراسة دقيقة لبعض الخطوات السياسية الهامة للحكومة
السوفييتية ، التي ينبغي معرفتها و « ابداء الرأى فيها » •

أ تناولنا بالدراسة — في مدى العشرة شهور التي قضيناها في المدرسة من أغسطس ١٩٤٢ م حتى نهاية مايو سنة ١٩٤٣ — تحت عنوان « السياسة الحالية » الموضوعات التالية :

— تكوين ما يسمى : « اللجنة الحكومية العليا ببحث الأعمال الوحشية ، التي يرتكبها المحتلون من الفاشيين الألمانين » (٤ نوفمبر سنة ١٩٤٢ م) .

— بدء الهجوم المضاد للجيش الأحمر عند « ستالينجراد » (٢٣ نوفمبر سنة ١٩٤٢ م) .

— حركة « فيرابونت — جولوفاتيتي » . التي تكونت في ١٨ ديسمبر سنة ١٩٤٢ م عندما تبرع أحد الفلاحين وهو « فيرابونت — جولوفاتيتي » في المستعمرة الزراعية الجماعية « شتاخانوفس » في مركز « نوفوبوكرو » في منطقة « ساراتوف » للجيش الأحمر بمبلغ ١٠٠.٠٠٠ « روبل » كي يصنع طائرة لابنه الذي كان طيارا في الجيش . (هذا الاتجاه الذي أعد له باحكام من قبل ، أرسله « جولوفاتيتي » في خطاب الى « ستالين » ثم تلقى خطاب شكر منه ، وبعد ذلك بدأت حركة فلاحي المستعمرة في دفع مدخراتهم الشخصية لبناء دبابات وطائرات) .

— تطبيق تغيير الزى العسكري في الجيش الأحمر (٧ يناير سنة ١٩٤٣ م) وفي الأسطول الحربى (١٦ فبراير سنة ١٩٤٣ م) ، وعليه العلامات الصدرية التي ألغى حملها بعد ثورة عام ١٩١٧ ، كذلك حمل نجم المارشال (٢٨ فبراير)

— الانتصار في المعركة عند « ستالينجراد » (٣ فبراير ١٩٤٣ م)

— وناقشنا في المجموعة الألمانية أيضا تكذيب « تاس » المشهور في ١٣ فبراير (نفت « تاس » في هذا التكذيب الأخبار الأجنبية التي تقول بأن الجنرالات الذين أسروا عند « ستالينجراد » لم يعاملوا كأسرى حرب ، بل وجهت اليهم المسؤولية في الجرائم اتى وقعت في « أوكرانيا » . مثل هذه الأنباء — كما شرحت « تاس » — أعدتها جهات حوالية للفاشية ، وهى كذب من أولها الى آخرها .

— أخبار نجاح الجيش الأحمر في هجوم الشتاء ١٩٤٢ — ١٩٤٣ م (١٣ ابريل سنة ١٩٤٣) في استرداد ٤٨٠.٠٠٠ كيلومتر من الوطن السوفييتى في الفترة من ١٠ نوفمبر سنة ١٩٤٢ حتى ٣١ مارس سنة ١٩٤٣ ومن بين المدن التي حررت :

(Wjaslaw, Gshatsk, Woroschilowgrad, Kursk, Rostw und Schachty).

كذلك المدن القوقازية الشمالية :

(Krasnodar, Naltschik, Kislowodsk, Jessentuki, Maikop und Pjatigorsk).

— المذكرة السوفييتية في ٢٨ ابريل عن قطع علاقة الاتحاد السوفييتي بحكومة بولندا في المنفى (اهتم بهذا الموضوع اهتماما كبيرا لدرجة أنه بعد أن درستته كل مجموعة على حدة دراسة تفصيلية ، ألقى فيه « يعقوب بيرمان » محاضرة عامة لكل الدارسين في المدرسة) •

درسنا هذا — وكذلك حوادث أخرى — بالتفصيل في الححص المحددة لدراسة « السياسة الحالية » ، وكان على كل دارس في مجموعتنا أن « يعبر عن رأيه » تجاه هذه الأحداث — حتى ولو كان زملاؤه الذين سبقوه في الكلام قد قالوا كل ما يريد التعبير عنه •

استطاع كل دارس بهذه الطريقة ، أن يتجاوب مع المسائل السياسية السوفييتية بسرعة ، وأن يتخذ الموقف « السياسي الصحيح » ، ويمثل — عند غياب التوجيه الرسمي — الاتجاه « الصحيح » والدعاية له •

وهكذا أنتج « الاتصال بين النظرى والعملى » هدفا مزدوجا ، ففي الناحية الأولى وجهنا لاستعمال معلوماتنا النظرية في البلد الذى سنعمل فيه فيما بعد ، وفي الناحية الأخرى تحولنا بطريق الالتزام — ليس فقط نتيجة لدراسة التاريخ السوفييتى ، بل أيضا نتيجة لمناقشة الأحداث الهامة في الاتحاد السوفييتى — الى مداومة تتبع الأحداث في الاتحاد السوفييتى ، والى تفسير موقف الاتحاد السوفييتى من الأحداث العالمية ، والدعوة له ، والدفاع عنه •

على الرغم من بعض نقاط الضعف — مثل ما كان في مناقشة « المسائل السياسية » في ألمانيا — فقد كان التثقيف السياسى فى مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية — حسب النظرة العامة — ممتازا ، وكان مفيدا جدا « للستالينية » •

يظهر لى أن كثيرا من الدوائر فى الغرب — وعلى الأخص فى الأعوام الأخيرة — يستولى عليها التفكير العسكرى ، لدرجة أنها مليئة بالتقديرات التخمينية عن الذرة والسلاح النووى السوفييتى ، ولم يكرسوا أدنى جهد للمدارس السياسية المنظمة تنظيميا رائعا ، حيث يتثقف أعضاء الحزب أيديولوجيا فى « الستالينية » •

التقارير الاخبارية السرية

كان ثلث وقت الدراسة تقريبا حكرسا للاطلاع ، وكنا نحصل على المراجع اللازمة من المكتبة ، حيث يوجد عدد كاف من معظم كتب « ماركس » و « أنجلز » و « لينين » و « ستالين » والكتب الأخرى . وجدت أيضا تراجم لأهم الكتب ، لكل الدارسين ، بكل لغة ، وكنا نضطر في حالات قليلة جدا الى الاكتفاء بما كتب بالروسية . فكان يكلف أحد الثبانب بترجمة النصوص المطلوبة للزملاء كبار السن . لم يجد المرء في المكتبة كتب : « ماركس » و « أنجلز » و « لينين » و « ستالين » والمراجع الحزبية الأخرى فقط ، بل أيضا تقارير اخبارية ، مطبوعة بطريقة التصوير ، وهي بالتأكيد ليست للتوزيع العام ، فقد كانت بعنوان « سرى » أو « سرى جدا » .

وضعت هذه التقارير الاخبارية اليومية في المكتبة حسب البلاد ، اذ هي عبارة عن أهم التعليقات الاذاعية ومقالات الصحافة الأجنبية ، ويبدو أنها من اخراج جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية في « أوبا » ، على شكل سلسلة مرقمة بأرقام سلسلة ، ولا تقرأ الا في قاعة المطالعة ، ولا يمكن الحصول عليها الا بعد كتابة استمارة استعارة .

عندما قرأت أحد هذه التقارير ، شعرت وكأن صاعقة أصابتنى ، ومما لا شك فيه أننى تأكدت في محاضرات أيام الآحاد في اللجنة المحلية للحزب في « كاراجندا » أن المحاضرين يعلمون أكثر مما نعلمه من الصحافة السوفييتية ، ولكنى لم أستطع أن أعرف مصدر هذه المعلومات . والآن ! عرفته ! ..

غير أننى لم أدرك في ذلك الوقت ، أن هذا النوع من التقارير الاخبارية كان واحدا من أنواع كثيرة ، فقد وجدت سلسلة أخرى وضعت — وأحييت باجراءات سرية مشابهة — ليقراها زعماء الحزب في طبقة القمة ، وكبار رجال الدولة في الاتحاد السوفييتى . وواضح أنه كان — ولا يزال — هناك تصنيف دقيق للتقارير الاخبارية ، طبقا لمجال نشاط عضو الحزب ، والطبقات القيادية العليا ، فنشأ عن ذلك طبقات هرمية في تلقى المعلومات .

لا زلت أذكر بالضبط شعورى عندما أمسكت لأول مرة بتقرير اخبارى في يدي ، فقد اعترائنى شعور بالثقة والفخر لأننى أصبحت واحدا

من أولئك القياديين ، الذين نضجوا سياسيا ، لدرجة أنه قد وثق به في اطلاعه على تلك المعلومات •

فكر الشباب الآخرون أو شعروا بمثل هذا ، وربما كان هذا شعور كل قيادي في طبقته ، ارتفعت تلك الطبقة أو انخفضت •

كان موضوع التقارير الموجودة في مدرسة الجبهة ، مختارات من وسائل الاعلام في الدول الأجنبية ، وبمعنى أدق في دول الحلفاء ، والدول المحايدة • فكان فيها خطب زعماء تلك الدول ، التي نشر ملخصها في الصحافة السوفييتية ، أو التي لم ينشر عنها شيء اطلاقا ، والمقالات المهمة من الصحافة الأمريكية والاسكندنافية ، والانجليزية ، والسويسرية ، وتقارير عن الاجتماعات الحزبية لمختلف الأحزاب في بلاد الحلفاء ، والدول المحايدة ، كذلك أهم التعليقات الاذاعية •

قرأت بشغف كبير ما كتبه « البروفيسور » السويسري « فون زاليس » ، ومما كان مثيرا للاهتمام أنه جاء في هذه التقارير بيانات أحزاب شيوعية ، لم تنشر في الصحافة السوفييتية ، بسبب موقف الاتحاد السوفييتي في السياسة الخارجية • مثل :

قرارات ومقالات الحزب الشيوعي في الولايات المتحدة الأمريكية ، الذي فصل رسميا من جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية •
خطب ورسائل « ماوتسى تونج » الى جيش العصابات في العاصمة اليابانية (وكان السبب في عدم نشرها في الصحافة السوفييتية ، علاقة اليابان آنذاك بالاتحاد السوفييتي) •

وأخيرا أمكن للمرء أن يقرأ أيضا في هذه التقرير منشور جيش العصابات ، الذي كان تحت قيادة « تيتو » ، ولم ينشر أيضا في الصحافة السوفييتية ، لأن الاتحاد السوفييتي حرص آنذاك على المحافظة على العلاقات الطيبة بينه وبين الحكومة الملكية اليوغسلافية التي تكونت في المنفى ، في لندن •

وكثيرا ما كانت تصدر طبعات خاصة من هذه التقارير في أحداث معينة ، حيث ينظم كل ما يتعلق بالحدث من أدلة تنظيميا كاملا ، يعطى للقارئ صورة واضحة وشاملة عن ظروف الحدث وملابساته برمتها • احتوت هذه التقارير على كل شيء ، يجب أن يتم به كل قيادي في الحزب ، يهتم بالمشاكل العالمية • ونظرا لأنها جمعت بطريقة رائعة ،

وتحتوى على معلومات في غاية الأهمية ، فقد تعودت على قراءتها بانتظام .
— حتى ولو بخرت من رأسى كل ما يتعلق بالدراسة الاجبارية في المدرسة •
كانت هذه التقارير لكل المجموعات ، وقد حصلنا نحن — أعضاء
المجموعة الألمانية — زيادة على ذلك ، على تقارير مطبوعة بالتصوير
« الفوتوغرافى » ، ومكتوب عليها أيضا « سرى » ، وكان موضوعها
مقتطفات من خطابات الأسرى الألمانين ضباطا وجنودا الى ذويهم
في ألمانيا • ومن المحتمل جدا أنها صادرة من الادارة المركزية للشئون
السياسية في الجيش الأحمر • ظهرت نسختين من هذه التقارير :
١ — مقتطفات من خطابات الضباط والجنود الألمانين الى ذويهم
في ألمانيا •

٢ — مقتطفات من خطابات الشعب الألماني الى أبنائه في جبهة
المقاتل •

ويبدو أن كل الخطابات ، التي وقعت في أيدي الجيش الأحمر أثناء
تقدمه ، قد استغلت بدقة وعناية ، فقد جمع في التقرير المطبوعة
بالتصوير « الفوتوغرافى » الأقوال التي تتعلق بالموضوعات السياسية ،
وكنت تجد العناوين التالية :

« أقوال عن الحرب بصفة عامة ، التموين ، الغارات ، العمال الأجانب
في ألمانيا ، أحوال أسرى الحرب ، العلاقة مع الحلفاء (إيطاليا ، المجر ،
اليابان ••• الخ) الوضع في البلاد المحتلة » •

لم تكن هذه الأقوال مصبوعة بالصبغة الدعائية ، وجمعت أقوال
الجميع ، سواء أكانت مع النازية أو ضدها • ولكن كان من النادر — بوجه
عام — العثور في الخطابات على معلومات سياسية واضحة ، الا أنه
وجد مرة اشارة صغيرة في هذا الصدد

كتب أحد الجنود الى زوجته في الوطن : « لقد طمح بى الكيل من
هذه الحرب » فكتب الرقيب على هذا الخطاب : « وأنا أيضا » •

كتب تحت كل جملة تؤخذ من الخطابات : اسم المرسل ، واسم
المرسل اليه ، والعنوان والتاريخ ، وبهذا أمكننا استنتاج تحليلات — وان
كان ذلك مشفوعا بالتحفظ — عن الشعور السائد في أجزاء مختلفة من
ألمانيا •

وبالإضافة الى التقارير العامة ، والتقارير التي احتوت على
مقتطفات من الخطابات ، فقد حصلنا بانتظام — على صورة تقارير أيضا —

على جميع المواد الرسمية • عن ألمانيا الهتلرية ، كل القوانين التى أصدرتها حكومة « هتار » ، كل خطب « هتزر » و « جوبلز » و « هيملر » و « شبير » و « بالدور فون شيراخ » ••• الخ ، ومقالات « جوبلز » ، والتعليقات الاذاعية التى كتبها « فريتشى » ، وكل التقارير الهامة الأخرى من الصحافة النازية ، وكذلك كل المقالات الجوهرية ، التى نشرت فى الصحافة المحايدة ، وصحافة الحلفاء عن الوضع فى ألمانيا الهتلرية • ويبدو أننا لم نكن الوحيدين الذين كانت ترسل اليهم هذه المواد ، لأنه عندما تقابلت فيما بعد — فى مايو سنة ١٩٤٥ م فى برلين — مع بعض كبار ضباط الجيش السوفييتى العاملين فى الادارة السياسية ، تعجبت من غزارة معلوماتهم عن ألمانيا — من المحتمل أنهم درسوا أثناء الحرب مثل هذه المواد التى كانت ترسل لينا •



دراستنا العسكرية

أعلن بعد وصولى الى المدرسة بوقت قصير ، أننا سنأخذ مستقبلا دراسات عسكرية •

قسم كل الدارسين والمعلمين — من كل الجنسيات — فى الدروس العسكرية الى ثلاث مجموعات :

الأولى : من الأسبانيين والفرنسيين والايطاليين •

الثانية : من الألمانين والنمساويين ، والألمانيين من مناطق شرق أوروبا •

الثالثة : من البلغاربيين والرومانيين والمجريين والتشيكيين والسلوفاكيين •

عين قائد خاص للدروس العسكرية ، بينما أصبح مدرس المجموعة وقائدها فى الدروس الأخرى « جنديا » بسيطا مثل تلاميذه •

كان معظم قواد المجموعات العسكرية والحكمداريين من القياديين فى الحزب ، الذين اكتسبوا خبرات عسكرية فى الحرب الأهلية الأسبانية • كان حكمدار المدرسة برتبة « جنرال رئيس أركان حرب » ، وهو شاب نمساوى يدعى « مارتن جرونبرج » وكان يعرف فى المدرسة باسم « فيليكس فالكى » •

كان تعيينه فى هذا المنصب أمرا غريبا ، فهو قد جاوز العشرين

(م ١٧ — نظام الحكم الشيوعى)

بأعوام قليلة ، وليس لديه أى خبرة عسكرية ، ولم يكن فى أسبانيا ، ولكنه تلقى تدريبات عسكرية فى الاتحاد السوفييتى ، وكانت المدة التى قضاها فى هذا التدريب قصيرة • أصبح كثير من المشتركين فى هذه الدورة ، الذين كانوا جنودا وضباطا فى أسبانيا — حتى جنرالات — تحت امره هذا الشاب •

كانت الدروس العسكرية تشتمل على تدريبات ، وشرح كيفية استعمال السلاح ، و « الاستراتيجية والتكتيك » • درس لنا « الاستراتيجية والتكتيك » ضابط سوفيتى ، على مسطح من الرمل ، وكان التكتيك على طريقة حرب العصابات ، فكان يجب علينا على الأقل — كما شرح لنا هذا الضابط — معرفة أسلوب قتال جنود العصابات • وبعد دروس قليلة من التدريب على مسطح الرمل ، انطبع فى ذهنى أن هذه التدريبات لا تبعد فى الحقيقة عن محاولتنا وضع لجان شعبية فى منطقة ما على الورق فى حلقات الدراسة •

كان شرح السلاح والتدريب على استعماله أكثر جدية من التدريب على الرمل ، فهنا كان الاستيعاب صعبا جدا بالنسبة لغالبية الدارسين ، الذين لم يمسكوا من قبل قطعة من السلاح فى أيديهم ، اذ وجب علينا فى زمن قصير تعلم : كيفية استخدام القنابل اليدوية ، وزرع الألغام ، وفك أجزاء المسدسات ، والبنادق والأسلحة « الأتوماتيكية » الخفيفة والثقيلة ، فكها وتركيبها بسرعة البرق ، كما وجب علينا معرفة الرتب والعلامات السوفييتية بنفس درجة معرفتها بالنسبة لوطن الدارس • فرض علينا فى المساء — بجانب الدروس السياسية — حضور دروس « مقوية » فى المعلومات العسكرية عند الرفقاء المتقدمين فى السن ، وكان مدرس هذه الحلقات لمجموعتنا الألمانية ، هو « أوتو » الذى اشترك فى حرب أسبانيا مدة ثلاثة أعوام • وكان أضعفنا فى المواد السياسية والنظرية ، ولكن كانت عنده ذاكرة قوية فى استيعاب أجزاء السلاح • وكما هو الحال لدى المتخلفين ثقافيا ، فقد حاول « أوتو » التباهى بقدرته فى هذه الناحية ، فكانت دروس التقوية عنده غزبية ، بالنسبة لنا جميعا ، ولكن لم يكن لنا اختيار ، فقد كنا ملزمين بدراسة كل المقررات •

وأخيرا وصلنا الى الوضع الذى كان فى استطاعتنا فيه البدء بالتدريب على اطلاق النار ، وسرعان ما اقترب يوم الامتحان • أخذنا

الذخيرة وكان علينا اجتياز امتحان اطلاق النار في الأسلحة التي يحددها
الممتحن • ثم فوجئنا بنجاح كل الدارسين تقريبا •

ثم بدأت التدريبات الميدانية العسكرية ، التي أخذت منا ساعات
كثيرة — وأحيانا وقت ما بعد الظهر كله — من وقتنا الضيق •

كانت تطلق الصفارة أحيانا في الساعة الثانية أو الثالثة صباحا ،

وعلينا في مدى دقيقتين أن نكون في وضع انتباه في ساحة التدريب •
ذاب تدمرى من دروس « مسطح الرمل » بعد وقت قصير ، وأخذت

التدريبات الميدانية في بادىء الأمر مأخذ الجد ، ولكن بدأ تحمسي
يذوب بعد فترة وجيزة ، فذات يوم تلقيت أمرا بأن أقوم بمناورة مع

أحد الذين قاتلوا في أسبانيا •

تسللنا في منطقة تغطيها الغاب والحشائش المرتفعة ، ثم سألتها

هامسا : « هل تسللنا صحيحا ، وعلام يتوقف الأمر ليكون صحيحا ؟ »
فأجابني هامسا : « الصحيح ، هو أن تنسى كل هذا بعد أن تنتهي

من هذه الدورة مباشرة » •

نظرت اليه مستغربا ، فقال :

« اقلل فمك الآن ، فما نفعه هنا عبث كله • اسمعها مني نصيحة :

انس كل هذه القذارة ، لأن الوضع في الحرب يختلف تمام الاختلاف » •
كان للتدريبات العسكرية ، تمثيلية سياسية جانبية ، فقد فرض

علينا عند السير بالخطوة العسكرية ، أن نغنى أغاني روسية ، أو أغاني
عسكرية أسبانية • ولكن في مجموعتنا التي نتحدث اللغة الألمانية ،

كنا نغنى أغاني أخرى مثل أغنية « البندقية سوداء سمراء » وأغنية
« لورى •• لورى •• جميالات ، بنات ١٧ و ١٨ » •

وذات يوم قاله لنا حكمدار مجموعتنا ، أنه لا يجوز لنا بعد اليوم

أن نغنى أغنية « لورى •• لورى •• جميالات ، بنات ١٧ و ١٨ » لأنها
أغنية فاشية •

فقررنا — نحن الدارسين الملتزمين بالنظام والأوامر — ألا نغنى

بعد ذلك الأغنية الفاشية « لورى » •

وعوضنا عنها بتكرار أغنية « البندقية سوداء سمراء » ولكن بعضنا

— وأنا منهم — كانوا حذرين ، فشاركوا في الأغنية بصوت منخفض
جدا ، خوفا من أن تكون أيضا أغنية فاشية ، ولحسن الحظ كان القرار

أنها ليست « أغنية فاشية » •

الاسترخاء الطبيعي ومجالس السمر المنظمة

اعتقدت أنى طالب مثالى ، ومجتهد فى تحصيل دروسى يشغف ونهم ، حتى دخولى مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية • ولكن سرعان ما تبينت أن أكثر الدراسة نشاطا فى أحد المعاهد العليا السوفييتية ، لا تساوى الدراسة فى مدرسة الجبهة ، فلم يكن لدينا راحة سوى ما يقرب من ساعة واحدة بعد تناول الغداء ، ثم باقى الوقت مملوء حتى المساء ، بحضور الحلقات الدراسية والذاكرة التى تخضع غالبا لرقابة زعيم المجموعة أو مشرف الفصل •

كان عندنا — من الوجهة الرسمية — وقت فراغ بعد العشاء ، ولكن رغم هذا لم يكن من النادر أن ترى معظم الدارسين فى قاعة المطالعة ، حتى الساعة الحادية عشرة والنصف ، أى بمقدار نصف ساعة قبل « نداء النوم » (الذى قدم فيما بعد الى الحادية عشرة أو العاشرة والنصف) • وينتهى اليوم الرسمى بعد « نداء النوم » غير أن للطلبة الحق — تبعا للحاجة الى ذلك — أن يستمروا بعد هذا الوقت فى الذاكرة فى قاعة المطالعة •

سمعنا فى بداية الدورة عن علم الأخلاق ، وكانت القواعد الأساسية قاسية ، لدرجة أن الطلبة القدامى — وحتى المدرسين الصارمين فى تنفيذ قواعد النظام — هزوا رؤوسهم ارتيابا فى صحة تنفيذ هذه القواعد •

صدرت الأوامر بأنه لا يجوز لأى دارس أو مديس شرب نقطة واحدة من المواد الكحولية ، ولم يستثن من ذلك أيام الأعياد والاحتفالات الرسمية مثل : أول مايو ، و٧ نوفمبر ، وأول العام الجديد •

وأوضحوا لنا بأسلوب لا يحتمل التأويل ، أن نى واحد يحاول الحصول — بطريقة ما — على كأس من الخمر ، سيعاقب عقابا صارما • ولم يكتفوا باصدار أوامر التحريم ، بل برروا اصدارها من الوجهة السياسية ، والأيدولوجية ، بواسطة القواعد العامة ، وكذلك بواسطة سرد أمثال مرعبة :

كيف قضى على مجموعات سرية بواسطة كمية صغيرة جدا من الكحول ، وسيق رفقاء الى المشانق ، وأصيبت حركات سرية بضربة قاضية •

صورت لنا هذه الأحداث بصورة واضحة ومؤثرة لدرجة أن المرء يمكن — بعد سماعه هذا — أن يقتنع بأن هزيمة الثورة في الفترة من ١٩١٨ — ١٩٢٣ م في مختلف البلاد الأوروبية ، كانت بسبب أن واحدا من القياديين تناول كأسا من الخمر في ليلة رأس السنة .

الترنما جميعا — تقريبا — بهذا الأمر أثناء مدة الدورة الدراسية ، ولم ينفذ العقاب الا في حالتين فقط تجاوز فيهما المعاقبان حدود النظام . تجاوزا بسيطا .

لم يحرم علينا الكحول فقط ، بل أيضا كل ما يتعلق بالعلاقات الجنسية ، وقد سبب هذا التحريم « أيديولوجيا » أيضا ، فقد شرح في إحدى المحاضرات :

كيف قضى في إيطاليا على مجموعة سرية ، لأن قائدها وقع في حب ، فقد كلف بالسفر بجواز سفر مزور الى باريس في قطار الساعة الرابعة ، وحرّم عليه تحريما قاطعا زيارة أحد قبل السفر ، ولكنه ذهب لزيارة صديقه قبل السفر ، فباغتته الشرطة هناك . وقد ناله هو نفسه ١٥ سنة أشغال شاقة ، ثم اكتشف زملاؤه فيما بعد ، وألقى القبض عليهم .

وفي الواقع ، كانوا يقربون الأبرياء من الوقوع في الشرك ، فاذا تكرر تجول شخص في فناء المدرسة ، يبلغ عنه بسرعة ، ثم تبدأ عملية النقد والنقد الذاتي .

لم يكن من السهل المحافظة على هذه القاعدة ، وخاصة الرفقاء والرفيقات ، الذين تتراوح أعمارهم بين ١٨ و ٢٣ سنة . وكانوا أكثر من نصف الدارسين في المدرسة . كان في المجموعة الإيطالية ، وكذلك في المجموعة الأسبانية ، مجموعة من الفتيات ، جمالهن ساحر . كان حول المبنى الرئيسي عدد من شجيرات الزهور التي تفتحت في الربيع ، وانبعثت منها روائح طيبة فاحت فملاّت الجو عبقا ، وكان من الصعب على فتاة أسبانية الامتناع عن استنشاق هذا العبير الطيب .

وقع في حبها أحد الدارسين البولنديين ، فقيد الى عملية النقد والنقد الذاتي فأعلن توبته ورجوعه الى التزام النظام .

وقع أيضا « شاركو » ابن « تيتو » في حب فتاة أسبانية ساحرة ، وأصر على ذلك فطرد من المدرسة .

كان وقتنا كله مشغولا بالدراسة ، ولم يكن لدينا وقت فراغ سوى نصف يوم السبت ويوم الأحد •

سمح لنا أن نعمل كل ما نريده في نهاية الأسبوع ، ماعدا الشرب والحب ، وذكر أسمائنا الحقيقية ، وذكر أى شئ عن حياتنا السابقة أو ذكر شئ عن حياتنا الحالية في الخطابات • ما عدا هذا فجائز ، فمسموح لنا أن ننام ، ونتجول أو نلعب كرة القدم أو نتسامر ، أو نغنى أغاني جماعية •

كانت أمزجة الجميع معتدلة في أحد أيام الآحاد بعد الظهر ، تواجد الثبان من المجموعة الفرنسية والأسبانية والايطالية والمجموعات الثلث الذين يتكلمون اللغة الألمانية ، في احدى الحجرات ، وبدأوا بغنون أغاني عسكرية ثورية ، ثم تحولت الى أغاني شعبية ، وعاطفية • « من يعرف منكم أغنية عاطفية أخرى ؟ صاحت فتاة أسبانية بهذه الجملة ، دون أن نشعر بأنها كونت «أوركسترا» بها •

فصاح فرنسى : « أنا أعرف كثيرا » فرجاه الجميع في أن يغنى شيئا مما يعرفه ، فلم يتردد ، وقف على الكرسى ، وغنى أغاني حب ، ومقطوعات عاطفية ، وكون الأسبانيون فرقة « كورال » خلفه ، وبعضهم كان يضرب الألحان بأصابعه وفمه •

اندفعت الفرقة معه ، واحد يطم فمه ليتلاءم مع النغم ليصاحب الفرنسى في الأغنية ، والآخر أحضر مشط الشعر ليقوى فرقة المصاحبة ، وبعد دقائق وجدت آلات أخرى •

وقبل أن نفيق من الاندماج مع هذه الأغاني الفرنسية ، تكونت فرقة رومانية أسبانية •

وفجأة دخل « ميخايلوف » الحجرة فأحاط به الأسبانيون بسرعة ، وبدأوا يقولون له كلاما باللغة الأسبانية ، كانوا يتكلمون بسرعة عجيبة ، أوما برأسه ، وانفجر غاضبا ، ثم أخبرنا الآخرين بما حدث •

كان مسموحا لنا أن نرقص في مساء كل سبت على وقع أنغام فرقتنا التي كونها من بيننا ارتجالا •

تطورت الفرقة ، وكان قائدها بالطبع الفرنسى ، وظهر أن لا آخر لما يحفظه من أغاني • وعلما فيما بعد أنه كان معنى عاطفى في احدى مقاهى باريس • كنا نفاجا كل سبت بأغاني جديدة من بلاد كثيرة ، وكانت تغنى كلها — تقريبا — باللغة الفرنسية والأسبانية ، لأنه لم

يكن بيننا انجليزى ولا أمريكى ، وليس بين المجموعة الألمانية والنصاوية الا عدد قليل من الأغانى العاطفية • أما المجموعات الأخرى فكان فيها عدد أكبر من الموهوبين فى الغناء • فقد حدث مرارا أن اتجهت بعد الرقص احدى الأسبانيات أو المجرىات أو التشيكيات أو البولنديات الى الفرقة وأسكرتنا بأغنية عاطفية جديدة •

ظهر أنه كان من بيننا أخصائيون بجانب معنى المقاهى الفرنسى ، مثل : « خونيتا » من برشلونة وكانت رائعة فى أداء :

(Tango yo te quiero mucho)

كانوا كلهم مسرورين عندما كانت تغنى الا أنا ، لأنى كنت أحب الرقص معها مدة أطول ، ولكن فى حدود المسموح حتى لا أقع فى مأزق النقد الذاتى •

سألتها مرة : « أنت رائعة فى الرقص والأغنى ! أين تعلمت هذا » ؟
— « أوه ! ليندين ! ألا تعلم ، أين نحن » ؟

ثم تبسمت ، ولم تجب على سؤالى •
كانت أمسية الرقص فى نهاية الأسبوع بالنسبة لنا استجماما ، واسترخاء للأعصاب المشدودة طول الأسبوع ، فقد كان الوقت الوحيد فى الأسبوع ، الذى تتحرر فيه أفكارنا من الموضوعات السياسية والعسكرية •

وسرعان ما تحولت أمسية الرقص الى « أمسية منوعات » ، يظهر على المسرح أحد الدارسين أو مجموعة تنشد الشعر ، أو تغنى ، أو ترقص أو تمثل احدى المسرحيات الصغيرة • وكان الأسبانيون أكثرنا نشاطا فى هذا المجال أيضا • وشيئا فشيئا تعلمنا كل الأغانى الأسبانية ، بينما لم نتعلم من الأغانى الأخرى الا آحادا •

كان على فرقتنا بالاشتراك مع المواهب الأسبانية فى الرقص والغناء أن تزيد من نشاطها وتوسع برنامجها • اذ بدا أن قائد المدرسة أدرك أن استرخاء الأعصاب المشدودة عن طريق اقامة الحفلات أمر ضرورى ، وبناء عليه فقد توصل الى « قرار » وعقب هذا مباشرة كان هناك اجتماع لمعالجة ما يسمى « الاسترخاء » • ألقى فيه « كلاسنر » كلمة جاء فيها :
« ... أخطار أعباء الدراسة الثقيلة ... لا يمكن أن يجلس الرفيق فى قاعة المطالعة حتى الساعة الثانية صباحا • • العيب الزائد عن الطاقة لا يفيد أحدا • • كذلك وقت الفراغ من الأمور الضرورية • • أغنى جماعية • • راحة منظمة » •

وهكذا أصبح لدينا « راحة منظمة » وبالأخص على طريقتة « أمسيات السمير » و « مقابلات استجمامية » جماعية •
حدد بالضبط أين ومتى نتقابل لنقضى أمسيات سعيدة جماعية ،
وماذا سيقدم في تلك الأمسيات : « ان من الأمور المهمة أن يجتمع
الدارسون خارج حجرات الدراسة • ولا يتطلب منا النضال في ألمانيا
ثقافة سياسية وإدارية فحسب ، بل أيضا الاتصال بالشعب الألماني ،
الذي يتطلب التكيف بعباداته وتقاليده ، وتحقيقا لهذا الهدف ، يجب
علينا حفظ أغاني ألمانية لنغنيها مع المجموعة في « أمسيات السمير » •
هكذا قال لنا « كلاسنير » •

* * *

نجح تحويل النظرى الى عملى فى هذه المرة ، فقد كنا نجتمع
بانتظام فى حجرات الحلقات الدراسية ، أو فى الهواء الطلق ، اذا كان
الجو مناسباً • اتخذنا مقاعدنا منتظرين التعليمات ، ولم ننتظر طويلا ،
فبعد تجمعنا مباشرة ، وصلتنا نصوص أغاني شعبية ألمانية ، غناها
أمامنا الرفقاء كبار السن ، ورددناها — نحن الشبان الذين لم نسمع حتى
الآن أغاني شعبية ألمانية — وراءهم فقرة فقرة •
وذاذ يوم جلسنا — بعد أن قمنا بفك البنادق واعادة تركيبها ،
وبعد أن سمعنا محاضرة عن الثورة الصينية — نغنى أغنية ألمانية •
كنا نغنى بانتظام ، وببتلك الجدية التى فرضت علينا فى المدرسة ، ولم
تكن الجدية فى هذا المقام فى وضعها الصحيح •
ثم سمعنا القائد يقول :
« أيها الرفقاء ! يجب أن يكون الغناء أكثر مرحا وسرورا ، ولا
ينبغى أن يكون بهذه الجدية •• » •

توقفنا فيما بعد عن حفظ النصوص عن ظهر قلب ، وأصبحت
« أمسيات السمير » ثقيلة فى المجموعة الألمانية ، ففى كل مرة كنت
أنتظر بفارغ الصبر نهايتها ، وكنت أشتاق الى الرجوع الى الحلقة
الدراسية ، أو الى المكتبة ، ثم كرروا لنا النصيحة :

« اتصالنا بالشعب الألماني سيقوى ويشتد بواسطة هذا الطريق »
فاندفعنا بحماس الى واجبنا الجديد ، وللأسف تأكدت فيما بعد أن
الأغاني الشعبية الألمانية التى حفظناها بعد جهد جهيد فى « بشكرين »

لم تساعدنى فى الاتصال بالشعب الألماني ، لأنى عندما رجعت فى مايو سنة ١٩٤٥ م الى برلين المحطمة من أثر ما ألقى عليها من القنابل ، لم أجد ألمانيا يهتم بما جئته به : بالأغاني الشعبية •
ولحسن الحظ أعلن عن أسلوب جديد يطبق فى « أمسيات السمير » وهو ألا يقتصر قضاء الأمسية على سماع أغاني شعبية ألمانية محفوظة ، بل يضاف إليها : أن يحكى الرفقاء كبار السن للشبان عن خبرتهم •
لم تكن هذه الحكايات — باستثناء عدد قليل — سوى تعبير عن آراء الشخص ومفاهيمه ، ولهذا لم تخرج عن كونها نوعا مقنعا من المحاضرات ، وعلى الرغم من أننا سمعنا الكثير من المحاضرات ، فقد اشتهرت فى سماع هذه الحكايات لأنها — على الأقل — أحسن من « الغناء المنظم اداريا » •

وسرعان ما حلت أمسية ، لا ينسى ما حدث فيها ، فقد حكى « برنارد كونين » تاريخ حياته المشوق ، فتحدث عن ثورة ١٩١٨ م ، وعن الاضطرابات فى وسط ألمانيا عام ١٩٢١ م وعن عام ١٩٢٣ م ، وعن احتفالات مايو التى شاهدها فى بلاد مختلفة • ومما لا شك فيه أن سرد الأحداث لم يكن سهلا عليه فى بعض الأحيان : لأنه — طبقا لأقواله — كان ينسجم دائما مع الاتجاهات السياسية الجديدة ، ويقوم بالأعمال التى تتطلبها الأحداث • ولم أعلم شيئا عن هذه الأحداث فى ذلك الوقت ، ثم تحول حديثه الى (Brandler) و « التروتسكيين » فتحدث عن ذلك بالضبط كما كتب فى الدروس •

وأحيانا كان يكلف — بجانب محاضراتنا — أحد الدارسين كبار السن بالحديث عن تجاربه ، ولم أنس ما قاله أحد الرفقاء الكبار ، الذى جاء الى الاتحاد السوفييتى فى نهاية عام ١٩٤٠ م أى قبل اندلاع الحرب بوقت قصير ، لم ينضم للحزب رسميا ، بل يبدو أنه قام بمهام خاصة • استمر يحكى ثلاث ساعات : كيف استطاع أن يتغلب على العقبات التى صادفته ، دون مساعدة من التنظيم الحزبى السرى ، فهو لم يسمح له بالاتصال بهم •

كان الوحيد فى مجموعتنا الذى كانت عنده الشجاعة للتعبير عن نقده فى مدرسة الجبهة مثل : الدروس العسكرية « مارتن جرونبرج » الذى عين رئيس أركان حرب ، دون أن يكون لديه أى فكرة عن الشؤون العسكرية •

وكان يشعر بأنه في مأمن ، لأنه اعتقد أن هناك ظهرا يحميه ، ولكن خاب ظنه ، فقد طرد بعد أيام قليلة من المدرسة .

هل جاوز حدود المسموح به في حكايته ، فصرح يائسيا لا يجوز ذكرها ؟ هل كان السبب في طرده تصريحه بالنقد ؟ هل حدث شيء لمن يحميه ؟

أخبرنا « كلاسنيير » بطريقة مختصرة جدا أنه طرد من المدرسة ، فهو لم يرتبط بالحزب ارتباطا صحيحا قط . وكان دائما في وضع المشكوك فيه .

قابلته بعد سنة في « أوفنا » قرأيت فظاعة حاله ، وعرفت ما معنى أن يصبح المرء في الاتحاد السوفييتي « معلقا » بالحزب .

* * *

نقدى الذاتى الأول

شعرت في صيف عام ١٩٤٢ م في « أوفنا » بالفرق بين حياة القياديين من الطبقة العليا وبين الانسان العادى . وصار واضحا في ذهنى أن الأشياء التى يستطيع المرء كطالب أو عضو في عنظمة الشباب أن يفعلها أو يتحدث عنها ، لا يسمح له بها في المحيط الحالى الذى أعيش فيه . عزمت عند وصلى الى « كوشنارينكوف » أن أعود نفسى على طريقة الحياة الجديدة ، وتتلخص المسألة في عدم ذكر شيء عن ماضى حياتى ، وعدم ذكر اسمى الحقيقى اطلاقا ، وليس الالتزام بهذا أمرا بالغ الصعوبة .

كان أصعب من هذا بكثير شيئا آخر ، لم يقله أحد لى ولكن ينبغى على الآن ادراكه .

فكل كلمة تفسر سياسيا .

وكان هذا جديدا بالنسبة لى حتى الآن .

كان يكفى لطالب وعضو في عنظمة الشباب أثناء الأوقات العادية — ويستثنى من ذلك طبعا سنوات التطهير ١٩٣٦ — ١٩٣٨ م — لو كان ملتزما « الخط الصحيح » في المجال السياسى ، ألا يعبر عن الأشياء التى لم تتناولها « برافدا » بالشروح والبيان ، وأن يشرح المفاهيم السياسية لدرجة أن السامع لا يمكن أن يفهمها — وحتى ولو

كان أغبى انسان ، أو كان من الذين يتهمون الناس جزافا — على أنها تصريح بمعارضة الاتحاد السوفييتى • وكان بجانب هذا مواضيع بعيدة كل البعد عن السياسية ، يستطيع المرء أن يتحدث فيها حسبما يشاء • لم أدرك فى الأسابيع الأولى فى المدرسة الفرق بين حياتى الماضية ، وحياتى التى بدأتها توا ، فتحدثت فى المجالات التى ليست عليها قيود ، وقلت فيها كل ما فى ذهنى • وفعل هذا أيضا الرفقاء الآخرون من الشبان فى مجموعتنا •

لقد كنا جميعا متفقين — جوهريا — مع النظام ، ولكن لم يمنعنا هذا — نحن التلاميذ — من نقد بعض المظاهر هنا وهناك ، وأن نسخر حتى من أمور فردية ، وبنوع خاص لم يمنعنا هذا من أن نكون أحرارا كلية وغير مقيدين بشئ فى المجالات غير السياسية • وهكذا كما هو حال الشبان فى سن العشرين فى كل مكان من أرجاء العالم • ولكن كان هذا محرما هنا ، واستخدمت عملية النقد والنقد الذاتى لعقاب من ارتكب هذا الجرم ، وكنت أول الضحايا •

كنا نكلف — فى غالب الأحيان — بأعمال عضلية ، ومعظمها كان لتنظيم وتنسيق المنطقة المحيطة بالمدرسة ، وأحيانا كنا نقوم بأعمال زراعية وغير زراعية خارج منطقة المدرسة •

نودى علينا للتجمع ذات يوم فى فترة الظهيرة :

« أجلت دروس اليوم التى تلتقى بعد الظهر ، لأن مجموعتنا استدعيت لتفريغ بضاعة من احدى المراكب البخارية » •

وبعد نصف ساعة كنا على ظهر السفينة ، وكانت محملة بجوالات من الدقيق ، ومطلوب تفريغها حالا •

كان « أوتو » يسخر منا نحن الشبان ، لأنه يحمل جوالين ، بينما نحن نحمل جوالا واحدا ، فتضايق من هذه السخرية : شاب صغير ، يعانى من قصر النظر ، واسمه « شتيفان » ، ولكن كان عنده الشجاعة للرد على « أوتو » ثم تطور الأمر الى معركة ، حيث ضرب « أوتو » « شتيفان » فى وجهه بقبضة يده ، وكنت واقفا بجانبه ، فانفجرت غاضبا • وفى اليوم التالى — بعد الظهر — أخبرنا نحن الثلاثة بأننا يجب أن نذهب الى المدير فى الساعة السابعة مساء •

ذهبت الى المدير دون أن يعترينى أى شعور بالذنب ، لأن المفروض

أن « أوتو » هو المذنب ، ولن أكون سوى شاهد فقط ، ولكن المسألة سارت على وضع آخر .

عندما دخلت حجرة المدير أصابني ذهول : فقد وضعت منضدتان أحدهما بجانب الأخرى على شكل منصة في وسط الحجرة . وجلس بجانب المدير الرئيس العسكري ، اذى لم نره الا نادرا ، ولم أسمعه يتكلم الا في حالات أشد ندورة من رؤيته . كذلك كان في الحجرة أيضا : احدى عضوات الحزب ، قيل انها تعمل في سكرتارية « ديمتروف » و « باول فانديل » ، والذي أدهشنى هو وجود « ايمى شنتسر » بينهم أيضا ، وهى فتاة لم يتجاوز عمرها التاسعة عشر عاما ، زرقاء العينين ، ولا تفهم في النظريات السياسية شيئا ، ولكنها ممتازة في تكوين اللجان الشعبية .

خيم على الجو مظاهر الجدية والرسميات ، كما كان في محاكم التفتيش . وكان هنا عند الحائط « كنبه » وكريسيان ، قيل لنا بلهجة باردة ، وبصوت منخفض جدا :

« اجلسوا على هذه الكراسى ! »

ثم خيم الصمت — مرت دقائق عديدة ، ولم يحدث شيء ، فأحسست بالانقباض على الرغم من أنى مقتنع بأن المسألة لا تمنى اطلاقا . وبعد مرور بعض الوقت ، قال « ميخايلوف » بنبرة لم أسمعها منه قبل ذلك : « أعتقد أننا نستطيع أن نبدأ الآن » .

بدأ « باول فانديل » بالكلام ، فشرح ظروف « الحالة » كلها ، وفجأة تأكدت أن المشاجرة عند جوالات الدقيق ، اعتبرت واقعة سياسية خطيرة ، ثم زادت المفاجأة عندما أزاح « كلاسنير » في تقريره الذنب من « أوتو » المعتدى ، ووضعه على « شتيفان » المعتدى عليه ، فقد أدين بأنه استغز « أوتو » .

سمعت « باول فانديل » (كلاسنير) يقول : « .. ويبدو أن من الضروري أن نبحث عادات رفقاءنا الشبان حديثى السن » وكرر ذكر اسمى كثيرا في تقريره

استمرت حدة الكلام فى ازدياد مطرد ، ولكن لم نصل الى حد الزمجرة والصياح ، بل كان كلاما باردا ، واقعيا ، ولكن صياغته حادة وعنيفة .

ثم تحدث الآخرون واحدا بعد الآخر ، ولكنى كنت أتابع الكلمات

بصعوبة ، وسمعت مرارا وتكرارا الكلمات : « تصرف غير بلشفي » ،
« نقص في الجدية » ، « عجرفة » .

جلست كالمشلول ، فلم أشاهد مثل هذا قط ، وكان أسوأ شيء هو
السكون الكلى ، الذى يتحول اليه كل من فى الحجرة ، فترات السكون ،
التي لا يتلفظ فيها بشيء ، ودون أن يخرج أحد لمدة ثانية واحدة من
هذه الحجرة التي أحس بأن عليها ثقل جبال الألب .

لم أستطع التفكير ، ما معنى هذا كله ؟ والى أين نحن سائرون ؟
ولماذا لم يقل أحد شيئا قط ؟ ، ماذا سيحدث الآن ؟

مضى الآن ساعة ، ولم يقولوا شيئا محمدا عما ارتكبته من ذنب ،
ورغم هذا فقد أحسست بأنى مذنب ، شعرت بأنى ارتكبت جريمة ما ،
ولكن عدم علمى بهذه الجريمة التي ارتكبتها ، جعلنى كالغريق الذى
ليس هناك من يساعده على النجاة .

لم أعلم آنذاك أن ما سمعناه لم يكن سوى تمهيد ، وبعد فترة
راحة قصيرة — تلك الدقائق الفظيعة التي يسكت اجميع فيها ، فلا
يتلفظون بكلمة واحدة — سمعت هذه الكلمة :

« أعتقد أن الرفيقة « ايمى » تريد أن تقول شيئا » .

وقفت الفتاة ، ولكنها لم تكن عاجزة ، كما فى حلقات الدراسة ، عندما
تعجز عن الاجابة على أسئلة سياسية ، بل وقفت هادئة ، يعترئها
الشعور بالسلطة التي أسبغت عليها الثقة بالنفس ، فقلدت نعمة من
سبقوها فى الجدية والرزانة .

كان أمامها ورقة مكتوب فيها بعض النقاط ، وبين الحين والآخر
كانت تلقى نظرة على الورقة لتواصل حديثها ، فقد كانت تلك النقاط
هى بنود اتهام ضدى .

كانت أعصابى نائرة ، فلم أستطع متابعة كل ما قالت ، وشيئا
واحدا لم أنساه حتى اليوم : دقة تقديم الاتهام ، فقد سجل كل ما
تفوهت به منذ يوم وصولى الى المدرسة ، مشفوعا بالزمان والمكان
تسجيلا دقيقا . فعلى سبيل المثال :

« فى يوم ٢٣ سبتمبر فى الساعة العاشرة والنصف صباحا عندما
خرجنا من حجرة الدراسة قال « ليندين » « » .

« فى ٢٧ سبتمبر فى الساعة ٦ مساء عندما كنا ذاهبين لنغنى
أغانى شعبية جماعية علق « ليندين » « » .

كانت كل هذه الأشياء لا أهمية لها لدرجة أنه لو سمعها شخص ،

ليس عنده أى فكرة عن مثل هذه المدرسة ، لاستغرق فى الضحك ، فلم يكن لها علاقة بالسياسة اطلاقا •

وفجأة رفعت « ايمى » صوتها :

« عندما أعلن عن محاضرة عن « الكسندر نيفسكى » قال لنا « ليندين » انه يهتم بهذه المسألة ، وكان مشغولا بدراسة مدة طويلة فى قسم التاريخ فى « كاراجندا » وهو ينتظر بفارغ الصبر ، لينظر عما اذا كان المحاضر سيأتى بجديد فيها » •

ظهرت علامات الجد على وجوه هيئة الادعاء ، فكتبوا بسرعة ملاحظاتهم ، وهزت احدى السيدات الجالسات معهم على المنضدة رأسها متأسفة • يبدو أن هذا التصريح ذنب له وزنه •

ثم تلا ذلك تلاوة أقوال صدرت عنى ، حاولت بكل جهدى أن أحتفظ فى ذاكرتى بكل بنود الاتهام لتي تتلى ، ولكن كان الجو قد أثر على نفسيتى فلم أنجح فى ذلك •

« عندما عدنا من التحطيم فى ٦ أكتوبر فى الساعة السادسة والنصف مساء ، ومر علينا بعض الرفقاء من أعضاء المجموعة الأسبانية ، قال « ليندين » لـ « فورستر » ان فى هذه المجموعة فتاة رائعة الجمال • انهمك الأعضاء الجالسون على المنضدة فى كتابة الملاحظات مرة أخرى ، وبدا من علامات التأثر على وجوههم أن هذا أيضا ذنب كبير • انتهت تلاوة بنود دعوى الاتهام ، ثم اعتدل « أوتو » على الكرسي ، وبدا أنه فوجئ بهذا كله • وكان « شتيفان » يلتفت — وهو جالس بجانبى — الى بين الحين والحين ، والخوف يملأ عينيه ، على الرغم من أن اسمه لم يذكر الا نادرا •

ثم تحدثت المرأة التى هى من سكرتارية الجبهة ، وتلاها فى الحديث الرئيس العسكرى ، و« ميخيلوف » ولكن لم يذكروا فى حديثهم تلك الدعاوى التى قرأتها « ايمى » الا عرضا فكانت كلماتهم نقطة انبداء للاتهام •

واليوم ، عندما أعود بذاكرتى الى ذلك المساء الذى جرت فيه عملية النقد والنقد الذاتى ، يسهل على التعرف على مظاهر هذا النظام ، فالأشياء التافهة والأمور العرضية التى لا تتعلق بالسياسة اطلاقا ، بنفخ فيها حتى تكبر وتصير مثل الجبال وتحرف حتى يصبح لها الفكر السياسى والطابع السياسى • ثم بعد ذلك يسوى (بدون صياغة) بين

الفكر السياسى وبين العمل السياسى ، ويستنتج من هذا نتائج يشيب لها
الولدان •

طبق هذا تقريبا كما يلى :

قال الرفيق « ليندين » أنه درس مسألة « الكسندر نيفسكى » فى
« كاراجندا » ثم قال انه ينتظر بفارغ الصبر عما اذا كان المحاضر
سيأتى بجديد •

ما معنى هذا ؟ معناه أنه يعتقد أنه يعلم كل شىء ، وأنه ليس من
الضرورى أن يدرس • والخطرة واضحة فى هذا الكلام ، تلك الخطرة
التي قذفت بكثير من القياديين فى الحزب الى الحضيض •
ثم تليت الأمثلة على ذلك — أمثلة فظيعة تشيب لها الرؤوس —
من حوادث المقاومة السرية •

كيف أهمل قياديون بسبب الخطرة اجراءات الأمن ، وأوقعوا
باهمالهم رفقاء فى أيدي الأعداء •

وكيف كانت الخطرة سببا فى الاستهانة بالعقبات التي تعترض
طريقهم ، فلم يستطيعوا تأدية واجباتهم •

نعم اذا فكر المرء فى هذه الأحداث حتى نهايتها يتبين له أن مثل
هؤلاء القياديين — بدون تحيز فى الحكم — شركاء فى اغتيال رفقاء
أجلاء ، وأنهم بخطرستهم قد خدموا أعداءهم •

وكان مثل هذا التفسير بالنسبة للجملة التي قلتها عن الفتاة
الأسبانية فى المدرسة •

فلتخيل المرء : « أثناء الحرب ، حيث يدور صراع الحياة والموت
ضد الفاشية المجرمة ، وحيث يعطى الشعب السوفييتى كل ما يملك للنضال
من أجل الحرية ، ليحرر وطنه ، يعطى الحزب للرفيق « ليندين » فرصة
— فى هذه الظروف الحرجة — للدراسة كى يعد نفسه للنضال الذى
ينتظره • وللحزب الحق فى أن يطلب من « ليندين » تكريس كل جهوده
فى هذا الاتجاه الذى رسم له ، ويستفيد من كل دقيقة للدراسة ، وأن
يكون تفكيره كله مركزا على النضال القادم • ولكن فيم يفكر « ليندين » ؟
يفكر فى فتاة أسبانية جميلة ، ويضع اهتماماته الخاصة ومصالحته الذاتية
فوق مصلحة الحزب وقد حدث مثل هذا أيضا فى الماضى •

ثم تليت أمثلة أخرى ، كل مثال يفوق الآخر فى المأساة والفضاعة
وهز المشاعر •

كيف نسى قياديون واجباتهم بسبب الحب ؟ فلم يقفوا هم وحدهم في أيدي العدو ، بل كانوا سببا في وقوع كل المجموعة السرية في أيدي رجال الأمن في البلد ؛ مسرح عملياتهم .

ثم تليت أمثلة على ذلك من ايطاليا وألمانيا الهنرية ، وأسبانيا ، وبدأ ذلك كله منطقيا لدرجة أني شعرت بأني فعلا مذنب ، باقتراف أشياء شبيهة بما ورد في هذه الأمثلة .

كان التأثير النفسي قويا ، لأنني لم أشاهد مثل هذه المسرحية قط ، فقد كنت طالبا مثاليا في المدرسة السوفييتية ، وحصلت مرتين على شهادة بأني تلميذ ممتاز وكانت نتيجة امتحاناتي كلها ممتازة ، وأهلنتي للحصول على منح دراسية دائما .

أصابني هذا الاتهام الفظيع بضربة قاتلة ؛ لأنه لم يحدث لي قط نقد أو نقد ذاتي ، ولم أسمع حتى الآن في هذه المدرسة بالذات ، أي ملاحظة نقد على تصرفاتي .

وأخيرا انتهت كلمة « ميخايوف » التي كانت آخر كلمة تلقى من هيئة الادعاء في هذه الجلسة ثم سمعت هذه الجملة :

« الكلمة الآن للرفيق « ليندين » . »

أذكر أنني قلت كلاما غير متماسك ، وأنى اعترفت بأن النقد صحيح ، وسوف أحاول اصلاح نفسي ، لقد كان تلعثما ، وتلجلجا أكثر منه خطبة متماسكة العناصر والجمل .

ثم جاءت كلمة الختام ، ومرة أخرى تحدث كثير منهم . لم تختلف النعمة : كان بيان « ليندين » تهربا ، فهو لم يفتن لأصل لمشكلة اطلاقا ، وقد دل على سطحيته . اذا كان « ليندين » مستعدا الآن في هذا المساء ، أن يدلي بهذا الاعتراف فالاعتقاد في ذلك سابق لأوانه » .

ثم تلا ذلك أمثلة أخرى ، أمثلة عن قياديين أقيمت ضدهم دعاوى ، بسبب أخطاء ارتكبوها ، فاعترفوا بخطئهم بسرعة وبسهولة ، ولكنهم بعد ذلك استمروا في ارتكاب مزيد من الأخطاء ، فساروا في طريق هلاكهم وفجأة — ولم أكن أنتظر ذلك اطلاقا — سمعت صوت « ميخايوف »

يقول : « أعتقد أننا نستطيع أن ننهي الاجتماع الآن » .
لم يتخذوا قرارا ولا اجراءا ، ولم أتلق أيضا أى تعليمات بما يجب على الآن عمله . لقد انتهى الاجتماع الفظيع القاسى فجأة كما بدأ فجأة .

كان الليل قد انتصف ، وساد السكون المنزل ، فقد استغرق الجميع في نوم عميق ، صعدت السلم الخشبي ببطء متوجّها الى حجرة النوم ، لم أستطع النوم ، وظللت ساعات ، وأنا أتقالب يمينا وشمالا في السرير ، لم أفهم ما دلالة هذا كله ؟ هل سأطرد من المدرسة ؟ من منظمة الشباب ؟ هل سيعاد ترحيلي الى « كارجندا » ؟

هيج أعصابي مصيري المنتظر ، واحساسى العميق بالذنب ، والمأزق الذى وقعت فيه الآن . لقد كنت مستعدا حقا للاعتراف بذنبي ، وقد فعلت ذلك ، وكان هذا خطأ أيضا . ماذا أفعل الآن ؟ لم أشعر قط — حتى في صحراء « كازاخستان » — بمثل هذه الورطة ، كما في هذه الليلة في مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية .

كانت الدراسة عادية في اليوم التالى ، فلم يظهر تغير شئ في المدرسة ، ولم يعلم أحد — هكذا بدا لى — بما حدث في مساء أمس في عملية النقد والنقد الذاتى في حجرة المدير .

كانت متابعة الدروس ثقيلة ، ولكنى علمت أن تصرفى بعد مساء النقد والنقد الذاتى سيرصد ، ويراقب مراقبة أكثر دقة من ذى قبل . ولهذا واصلت كتابة الدروس وراء المحاضر ، ولكنه لم يكن سوى عمل آلى ، فقد كان ذهنى معلقا بمساء أمس ، وبما سيحدث مستقبلا ، اذ كان بواضحا لى أن المسألة لم تنته بعد .

جلست « ايمى » بجانبى ، وكان باديا عليها عدم الاهتمام اطلاقا . بماغتننى الأفكار فجأة بأن طريقتها في تسجيل الحوادث بدقة ، كانت مبعوضة وكريهة جدا .

واستغرقت في التفكير دون أن أشعر : هل كان هذا هو الطريق أنصح ؟

هل تكون مثل هذه الطريقة ضرورية ، للصعود الى الطبقات القيادية في الحزب ؟

فمما لا شك فيه — هكذا فكرت — أنى ارتكبت أخطاء كثيرة ، ومن الطبيعى أن الحزب ليس له الحق فقط ، بل من واجبه أيضا تقويم خطئى في المدرسة للتغلب على نواحي الضعف عندى . ولكن هل ينبغي أن يكون بهذه الطريقة ؟ فى جو أشد فظاعة من لحظات اصدار حكم قاس ؟ ألم يكن فى الامكان اتباع طريقة أخرى للتقويم وابداء النصيحة ؟

أفزعتنى هذه الأفكار ، ولكنها لم تعد تزيد فى الضغط على نفسيتى .

(م ١٨ - نظام الحكم الشيوعى)

ليست أحوال المدرسة هي طابع الجو الذي يعيش فيه رفقاء الحزب ؟
ثم تذكرت أفكار أخرى معارضة ، مرت بى سابقا فى زمن حركة التطهير ،
عادت الى ذاكرتى مواقف معارضة النظام ففزعت من نفسى ، ماذا يمكن
أن يحدث لو صرحت بهذه الأفكار ؟

قررت فى نفسى أن أكون شئد حذرا فى أقوالى مستقبلا ، ولن
أتلغظ الا بما هو ضرورى جدا • فسوف أفكر فى كل جملة ، بل فى كل
كلمة قبل التلفظ بها • ولكن اعترانى اليأس مرة أخرى :

هل ينبغى أن يكون هذا ؟ هن تكون هذه صراحة ؟ ولكن ماذا ينبغى
أن يكون اذن ؟ كيف يمكن أن يكون المرء صريحا ، اذ فسرت كل كلمة
عادية — من الوجهة الواقعية — على أنها تصريح بالعداوة ؟

فزعت مرة أخرى من أفكار الزندقة ، فقد كان اعترافى بالذنب
مساء أمس اعترافا لا نفاق فيه ، اذ كنت مقتنعا بأن النقد اللاذع ،
الذى وجه الى أمس ، له ما يبرره ، وكنت عازما حقيقة على اصلاح نفسى ،
ولكن تبخر هذا الاخلاص الذى كان طابع اعترافى بالذنب •

لو سارت عملية النقد فى مساء أمس ، على خلاف ما سارت عليه ،
لصفى اعترافى كل شئ ، وربما لم تدر فى ذهنى أفكار « الزندقة » ،
أو على الأقل ربما تأخر ظهورها •

ربما أمكن تحويلى دون ادراك فى هذا المساء — كما هو حال
انقياديين من الروسيين وغير الروسيين — الى أداة « للمستالينية » ،
ولكن كانت النتيجة عكس ذلك •

مما لا شك فيه أنى تربيت فى النظام ، ولا زلت أعيش فيه ، ولهذا
لا أرغب فى شئ غير النصر للسلاح السوفييتى • ولا زلت أعتقد اعتقادا
جازما أن الاتحاد السوفييتى سيحقق الاشتراكية ، وأن كل الظواهر
التي تبدو لى أنها غير مقبولة ليست نتيجة للنظام ، بل تفسر على أنها
من الظواهر المصاحبة لتحويل بلد متخلف مثل روسيا الى النظام
الاشتراكى •

لقد رأيت الأخطاء والعيوب بوضوح آنذاك ، ولكن لم أكن أعلم
أنها مرتبطة ارتباطا منطقيا بالنظام ، لم تكن بالنسبة لى آنذاك سوى
أنها صادرة من قياديين مهطيين ، حادوا عن الطريق ، أو أنها أمراض
أطفال فى مجتمع جديد ، أو اجراءات ، حتم التخلف اتخاذها ، أو ظواهر
لبسلوك عرضي •

ولكن كانت نتيجة حوادث هذا المساء أنى فكرت فى كل جملة ، وكل كلمة قبل النطق بها ، ولم أسمح لأفكارى المعارضة بالظهور على لسانى ؛ وأخفيت احساسى الحقيقى . وأدراكى الداخلى فى فهم الأحداث • كان موقفى من « الستالينية » آنذاك أشد خطورة مما انعدت بسببه جلسة النقد والنقد الذاتى • ماذا كان يحدث لو صرحت بأفكارى التى لم أعلن عنها حتى الآن ؟ وأعتقد اليوم ، أنى بدأت آنذاك السير فى الطريق ، الذى قادنى بعد سبع سنوات الى الكفر « باستالينية » ، والهروب من المنطقة الألمانية ، الواقعة تحت الاحتلال الروسى •

هدأت هذه الأفكار التى استغرقت فيها قبل الظهر نفسيتى نوعا ما . وأدخلت الطمأنينة فى قلبى • ثم أخبرت بعد الظهر بأنه ستعقد فى المساء جلسة نقد ونقد ذاتى فى مجموعتنا الألمانية ، ولكنهم لم يقولوا ، حول ماذا ؟ ولا ضد من ؟

خيم على الحجرة جو رسمى مشابه لما كان فى حجرة المدير فى أيووم السابق ، واستولى القلق والتوتر على كل الحاضرين • تكرر كل شىء : وصف الحالة على المركب البخارى ، القاء الذنب على وعلى « شتيفان » ثم انصب النقد كله على •

على الرغم من أنى أسمع ذلك للمرة الثانية ، فقد شعرت مرة أخرى كأن أغللا تطبق على عنقى • وعادت الى ذهنى الأفكار المعارضة ، التى طافت بذاكرتى قبل الظهر ، واشتدت شيئا فشيئا ، وسرعان ما شعرت مرة أخرى بالحيرة ، فقد كانت هناك دقائق ، بعدت فيها عن متابعة ما يلقى ، لا لأنى فقدت القدرة على التركيز ، بل لأنى سرحت فى أفكار « الزندقة » مرة أخرى •

استغرقت كلمة « فانديل » ساعة ، ومما جاء فيها أن المسألة معقدة جدا ، ولذلك يجب بحثها بحثا جديا فى محيط المجموعة ، وتبع ذلك إعادة سرد الأشياء ، التى لا أهمية لها ، وتفسيرها تفسيراً سياسياً • ثم ذكر فى آخر الكلمة أن « ليندين » ألقى أمس بياناً غير كاف على الاطلاق ، ومن واجب كل منا الآن أن يبدى برأيه فى هذا الموضوع • تحدث كل أعضاء مجموعتنا واحدا بعد الآخر ، وسار كل شىء حسب الخطة الموضوعية ، حتى أعز أصدقائى ، تحتم عليهم الآن أن يلعنوني ، ونفذوا ما رسم لهم ، فقد رسمت خطبة « فانديل » ما يجب

أن تتضمنه كلماتهم فالتزم بذلك كل أعضاء المجموعة غير أن النعمة كانت تختلف من واحد لآخر ، فبعضهم أراد الظهور بمظهر المتحمس للالتزام بالاتجاه الرسمي فاشتد في صب اللعنات على أكثر مما كان « فانديل » نفسه ، والتزم البعض الآخر جانب الوضع الرسمي لعملية النقد والنقد الذاتى ولكنهم لم يكونوا في هجومهم مثل المجموعة الأولى . لم يذكر أحد الطلبة — بدافع الصداقة التى كانت بيننا — اسمى ، وحاول معالجة المسألة « نظريا » ، فبدأ يشرح ملاحظات عامة عن خطورة انطباع السيئة ، ولكن لم ينفعه ذلك ، فقد قاطعه « فانديل » بحدة ، واتهمه بالخروج عن الموضوع الذى تناقشه فى هذه لجلسة . وهكذا قفل الباب فى وجه من يريد الخروج من هذا المأزق بهذه الطريقة .
ومضت ساعات ..

ثم وصلنا الى اللحظة التى وجب على فيها ابداء رأى . تحدثت فى هذه المرة وأنا أهدأ وأكثر واقعية من مساء أمس ، فاعترفت بذنبى مرة أخرى ، ولكنى بينت فى نفس الوقت أننى سوف أفكر فى هذا بدقة وحزم . كان الأول حقيقته ، أما الثانى فكان عملية « تكتيك » اضطرت اليها . وأخيرا تعلمت — مما حدث فى مساء أمس — أن الاعتراف السريع بالذنب لا يلقى قبولا . وانتهى المساء ببيان وكلمة أخيرة من « فانديل » .

لم يتخذ قرار فى هذه المرة أيضا ، فلم أعلم بعد ، عما اذا كانت المسألة قد انتهت بهذا ، أو أن هناك اجراءات أخرى ! ولكن ظهر فيما بعد أنها انتهت عند هذا الحد .

لقد كانت أول عملية للنقد والنقد الذاتى فى مجموعتنا ، ثم تكررت هذه التمثيلية فى الأسابيع والأشهر التالية ، حتى دخل كل الدارسين تقريبا طاحونة « النقد والنقد الذاتى » .

لم يغيرنى « النقد والنقد الذاتى الأول » فقط ، بل غير أيضا كل الدارسين فى مجموعتنا . نقد أصبحنا أكثر جدية ، وعلى الأخص أشد حذرا فى تعبيراتنا ، فاخفتت الحرارة الزائدة فى السلامات والتحيات ، وتوارت حرية الحديث ، والتدعاءات العالية المعبرة عن الاستحسان والفرح ، فتصرفنا نحن الشبان — الذين كانت أعمارهم تتراوح بين ١٩ و ٢٣ سنة — كأعضاء الحزب القياديين ، المتقدمين فى السن ، الذين يتقنون كلماتهم بهدوء ، ويفكرون أكثر من مرة قبل أن يعبروا بها على

ألسنتهم ، ومن المحتمل أنى تصرفت آنذاك مثل أولئك القياديين ، الذين تعرفت عليهم فى « أوفنا » وكان تصرفهم معى غير واضح لى قبل بضعة أسابيع •

النضال ضد المذهبية

أعلن فى جميع المجموعات فى نهاية أكتوبر سنة ١٩٤٢ أن زائرا هلى مستوى عال سىحضر الى المدرسة فى غضون الأيام التالية — سىلقى عضو فى اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفىيىتى محاضرة عن الوضع العالمى •

امتلاأت قاعة المطالعة — التى تلقى فيها المحاضرات العامة — فلم يكن هناك كرسييا خاليا • وكما هى العادة المتبعة ، جلس على المناضد الخلفية المترجمون ، مع من يترجمون لهم ، وفى الصفوف الأمامية ، أولئك الذين يتقنون الروسية ، ويتحدثون بها كلغتهم الأصلية ، كان انجو يوحى بأن فى الأفق أحداث هامة •

لاحظنا فى هذه المحاضرة — كما كان الحال دائما فى كل محاضرة — الاشادة بالتحالف القوى الذى لا تنفصم عراه بين انجلترا وأمريكا والاتحاد السوفىيىتى ، والهجوم على « المذهبية » لقد تثقفنا سياسيا بدرجة مكنتنا من ادراك أن هناك خطأ سياسيا جديدا ، وأن المحاضرة اشارة للاتجاه الذى ينبغى أن ندرسه بعد الآن •

ولم يخب ظننا ، فابتداء من هذا اليوم ، ازدادت فى كل المحاضرات العامة وجميع الحلقات الدراسية التلميحات الى الخطر الجسيم : « المذهبية » •

وأحب أن أنبه القارىء الذى ليست له صلة بالأيديولوجية « الستالينية » أن من المسلم به أن الأمر لم يكن يتعلق بالدين أو الطائفية الدينية اطلاقا • فقد شرح مفهوم المذهبية فى مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية على النحو التالى :

« المذهبية فهم سياسى « أيديولوجى » ضار فى الحركات العمالية التى تنكر سياسة تحالف الطبقة العمالية مع الطبقات الأخرى ، وتحاول عزل الحزب عن الجماهير » •

نجح الحلفاء فى أوائل نوفمبر سنة ١٩٤٢ فى انزال قواتهم فى

شمال أفريقيا ، وفي منتصف نوفمبر بدأ هجوم الجيش الأحمر المضاد عند « ستالينجراد » الذى كان بداية تحول الحرب • وحذ وقوع هذه الأحداث — ولكن بنوع خاص منذ أوائل عام ١٩٤٣ م — لم يمر يوم فى المدرسة الا ونسمع فيه هدير ضد المذهبية •

لم يتكرر فقط فى كل يوم منح التحالف بين الاتحاد السوفييتى والبلاد الغربية فى المدرسة ، ويتخذ كأساس للسياسة الصحيحة ، بل ناقشنا أيضا — باستمرار — ضرورة خلق تحالف بين كل القوى السياسية فى كل بلد ضد « هتلر » ولا ينبغي فى المرحلة الراهنة — هكذا علمونا — أن ننظر الى مصالح السياسية الذاتية ، بل يجب تكريس الجهود أولا لتجميع القوى السياسية والعسكرية ، للنضال ضد الفاشية الهتلرية • ألقى الحزب بأهدافه الخاصة جانبا ، وأصبح واضحا أنه يركز كل قواه ضد هتلر ، ولهذا فسوف يكسب فيما بعد نفوذا حاسما •

لا شئ — هكذا كان التلقين مرارا وتكرارا — أخطر من اتخاذ الاجراءات المرحلية كوضع دائم ، والتمسك بها ، كما لو كانت ضرية لازبا •

حاولوا تبعثتنا للنضال ضد المذهبية بسرد أحوال الظروف الصعبة ، وما اقتضته من أحداث وقعت قبل زمن طويل •

ولم أنس مناقشتنا حول موضوع « تاريخ الثورة الصينية » ٢٥ — ١٩٢٧ م ، سمعنا محاضرة ثيقة جدا عن هذا الموضوع ، ثم وجب علينا مناقشته فى حلقة دراسية ، نهالت الأسئلة عن « الكومينتانج » (١) وتكوينه ، وأهدافه السياسية ، وعن القوى الاشتراكية ، والعلاقة بين الحزب الشيوعى الصينى ، والحزب الوطنى الديمقراطى ، ودور « تشيانج كاي شيك » •

دخل « ميخايلوف » أثناء المناقشة ، فجلس بجانب « فانديل » ، نو سمع المناقشة أى انسان ، لاقنتع بأننا نلم بالموضوع ، ونعرف عنه كل كبيرة وصغيرة ، لأننا كنا نجيب على أسئلة « فانديل » الصعبة اجابة صحيحة ، وبالتفصيل • ولكن ظهر أن « ميخايلوف » لم يكن راضيا ، فقد التفت بعصبية الى « فانديل » وقال له :

— « لا تؤاخذنى ! هل يجوزى أن أسأل سؤالا هنا ؟ »

(١) الحزب الوطنى الديمقراطى الصينى ، الذى أسسه « صن يات صن » عام ١٩١٢ م • (شامة) •

فقال «فانديل» : « طبعاً ! طبعاً ! » •

•• قال « ميخايلوف » :

« أيها الرفقاء ! المسألة لا تتعلق بأنكم تعلمون كل هذه الأشياء ، طبعاً هذا مهم أيضاً ، ولكن هناك شيء آخر أهم منه ، إذ تعطينا الأحداث في الصين من ١٩٢٥ الى ١٩٢٧ نظريات كثيرة جداً ، ويستطيع المرء أن يفهم هذه النظريات فهما صحيحا ، اذا وضع نفسه في ظروف ذلك العصر • وبهذا يستطيع في ظروف مماثلة أن يصل الى القرار الصحيح •

« أنتم كلكم تعلمون الظروف العامة في ذلك العصر ، فمن الناحية الرسمية لا زال الحزب الشيوعي الصيني حليف الحزب الديمقراطي الصيني ، ولكن يبدو أن أيام هذا التحالف معدودة ، ويمكن أن يحدث التصدع في أي لحظة •

« أحب أن أصور لكم جانباً من الوضع في ذلك الوقت ، فقد كان للحزب الشيوعي في « شنغهاي » آنذاك تأثير كبير على العمال ، وزيادة على ذلك فقد كان عند العمال أسلحة ، فقام الحزب في حالات معينة بدور السلطة المسلحة ، وفي نفس الوقت كانت جيوش « تشيانج كاي شيك » تقترب من المدينة ، ويمكن أن تصلها في أي يوم من الأيام التالية •

« ماذا كان ينبغي أن يفعله رئيس الحزب الشيوعي في شنغهاي ؟ هل ينبغي أن يستقبل جيوش « تشيانج كاي شيك » بالترحاب كحليف ؟ هل يلقى كلمات الترحيب ، ويوزع منشورات التحيات ؟ أو ينبغي عليه أن يستدعى عمال المدينة ، لمقاومة جيوش « تشيانج كاي شيك » ويخرج بذلك من التحالف الذي كان على وشك الانهيار ، حتى ولو لم يحدث ذلك ؟ ••

« ليس ما أقوله خيالاً ، بل وقع فعلاً ، لقد استمر الرفقاء آنذاك يناقشون الوضع طول الليل » •

وقف « ميخايلوف » عند ذلك ، وسكت لحظة ليفاجئنا بهذا السؤال :

« وأنتم ! ماذا كنتم فاعلون » ؟

خيم السكون التام دقيقة •

لقد شرح الوضع بطريقة مدهشة ، لدرجة أن المرء يمكنه أن يجزم

بأنه كان هناك في تلك الأيام (وهذا ممكن جداً) •

استغرق كل واحد منا في التفكير ، حقا لقد كانت المسألة معقدة ، وأخيرا طلب أحدنا السماح له بالكاذب :

« أعتقد أنه كان من الأصح أن يحافظ المرء على عقد التحالف ، ما دام متأكدا أن المحالفة قائمة على أساس صحيح ، ولكن في تلك الأيام ، عندما تبين أن « تشيانج كاي شيك » سيخون التحالف في أى لحظة ، ويستخدمه للضربة القاضية ، كان لزاما على المرء أن يؤيد الحزب ، والعمال المواليين له . ولا يجوز بأى حال من الأحوال ترك عمال « شنغهاي » والحزب الشيوعي فريسة لـ « تشيانج كاي شيك » وخاصة اذا كان سلاحهم أقل ، وهم في حالة الدفاع عن النفس .

نظر الدارسون الى « ميخايلوف » نظرة تساؤل ، ولكنه لم يقل كلمة واحدة ، حتى لم يظهر أى إشارة على وجهه . ثم سأ :
« هل توافقون كلكم على هذا الرأي ؟ »
فطلب آخر الكلمة :

« لست متأكدا كل التأكيد ، ولكنى أعتقد أنه على الرغم من كل شيء ، فقد كان ينبغي على زعيم الحزب الشيوعي في « شنغهاي » أن يستقبل قوات « تشيانج كاي شيك » بمظاهر الترحاب والاخوة — حتى ولو كان هناك خطر في أن « تشيانج كاي شيك » سيدمر التحالف ، ويستفيد من هذه المساعدة ، في الاستيلاء على مدينة ضخمه . كان الالتزام بالتحالف واجبا ، كى يصبح واضحا لدى كل انسان في الصين أن « كاي شيك » هو الذى نقض العهد ، وخان الثورة ، وليس الشيوعيون ، وسوف يترتب على اتخاذ مثل هذا الموقف صعوبات وقتية للحزب ، ومن الممكن أن تقع ضحايا ، ولكن ربما كنت هذه السياسة أحسن ، رغم كل ما يعترضها من عقبات » .

مال معظمنا الى تأييد هذا الرأي ، نظرنا الى « ميخايلوف » لنستشف اتجاهه ، ولكنه لم يقل شيئا في هذه المرة أيضا ، بل انتظر ، وأخيرا طلبت الكلمة الفتاة « ايمي » التى برعت في تكوين اللجان الشعبية .

ابتسمت ابتسامة غير واضحة ، ثم قالت :
« أعتقد أن المرء لا يحتاج الى تقرير هذا أو ذاك . كان يجب اتباع ما يلى :

فمن الناحية الأولى : اصدار بيان رسمى واستقبال فرقة الحزب الوطنى الزاحفة ، استقبال ترحيب ، ومن ناحية أخرى طبع منشورات

وتوزيعها على العمال تحذرهم من الخيانة المتوقعة من « تشيانج كاي شيك » وينصحهم بالحذر من القاء السلاح من أيديهم ، لأنهم ربما يحتاجون اليه عند حدوث الغدر المتوقع » •

نظر « ميخايلوف » نظرة جادة ، ثم قال بصوت بطيء جدا ، ولكن بالنسبة لطريقته المألوفة حاد نسبيا :

« الاقتراح الأخير مرفوض ، فلا يتعلق تصوير هذه الواقعة بمسألة « التكتيك » بل بالاستكشاف « الاستراتيجية » ، ويجب على الرفيقة « ستيرن » ادراك الفرق •

يكمن الفرق باختصار فيما يلي :

تتكفل « الاستراتيجية » بالقوى الرئيسية للثورة ، وتتغير بتحول الثورة من مرحلة الى أخرى ، ولكن جوهرها يظل باقيا لا يتغير مدة دوام المرحلة الواحدة • ولكن « التكتيك » على العكس من ذلك ، فهو يتكفل بأسلوب التنظيم والنضال الضروري • وتدور المسألة هنا حول وضع خطوط سياسية لمرحلة قصيرة جدا ، يمكن أن تتغير داخل حدود المرحلة الواحدة ، أو في اطار الثورة عدة مرات •

لم تنته المناقشة عند هذا الحد ، اذ وقف كل أعضاء المجموعة — واحد بعد الآخر — يبدى برأيه في هذا الموضوع ، ولكنهم لم يأتوا بجديد ، وانما داروا حول الرأيين السابقين ، بطرق وأساليب مختلفة • وبعد وقت قصير ، وقف « ميخايلوف » :

« لم أعط لكم هذا المثال لذاته ، بل أردت أن أبين لكم به مدى صعوبة اتخاذ قرار سياسى فى بعض الأحيان • ربما يضطر أحد منكم فيما بعد الى اتخاذ قرار سياسى وحده • فالتاريخ ليس تاريخا فقط ، اذا درستهم التاريخ ، فحاولوا الانغماس بأفكاركم فى أحداثه ، فذلك يطور قدرتكم على اتخاذ القرارات » •

ثم تطرق الى ما كنا ننتظره منه بفارغ الصبر ! أى الرأيين أصح ؟ وكان مباعثا لنا جميعا ، عندما قال :

« كان الرفيق الثانى على صواب ، فالتحالف السياسى المشترك ، يعلو فوق مصير القرارات الفردية ، حتى ولو كان التحالف فى خطر ، فلا يجوز اطلاقا — وتحت كل الظروف — البدء بنسف التحالف • حتى ولو كان هناك خطر الهزيمة ، فى بعض النواحي والتضحية ، فلا يجوز أبدا اهمال الهدف الاستراتيجى للتحالف ، لأنه سيؤثر بمرور الزمن على

الحزب سياسيا • لسنا نحن ، بل الآخرون هم الذين يتركون جبهة التحالف القائمة » •

كان هذا هو جواب « ميخايلوف » في نهاية عام ١٩٤٢ م مطابقا للخط « الاستراتيجي » الذي أعلن آنذاك ، غير أنى لست متأكدا ، عما اذا كان قد ألقى به جانبا بعد سنوات قليلة •

لم يتناول الهجوم على « المذهبية » في الحلقات الدراسية ، حوادث الصين البعيدة ، وحوادث عام ١٩٣٧ م فقط ، بل ظهر أيضا بعد بضعة أسابيع في مسائل معاصرة •

أعلن فجأة عن محاضرة خاصة لكل الدارسين في المدرسة ، يرتبط موضوعها بالأحداث الهامة أيضا •

تكلم « ميخايلوف » في هذه المحاضرة ضد « المذهبية » وعلى الرغم من أن هذا الموضوع لم يكن جديدا بالنسبة لنا ، فقد شعرنا بمان هناك شيئا جديدا •

لم يطل انتظارنا ، اذ رفع « ميخايلوف » صوته فجأة قائلا :
« •• أؤكد على هذا ، لأننا رأينا في مدرستنا قبل بضعة أسابيع ، حالة تشير الى أننا لم نتغلب بعد على « المذهبية » : حالة وصلت الى الخطر جدا ، تحتم علينا ازاءه ، معالجتها في محاضرة عامة » •
أعصاب الجميع مشدودة : فكلنا نعلم أن القول الفاصل يتلو هذا التصريح ، انتظر « ميخايلوف » حتى انتهى المترجمون من الترجمة ، ثم واصل كلامه :

« لقد وصلت « المذهبية » في المجموعة الايطالية بعيدا ، لدرجة أنها تسببت في أخطاء سياسية خطيرة • ففي إحدى الحلقات الدراسية قال أحد أعضاء المجموعة الايطالية : لقد حان الوقت لاعطاء رجال حرب العصابات الايطاليين اشارة الى البحث عن مكان أمين لاختفاء الأسلحة ، حتى لا تقع — في حالة تحرير ايطاليا على يد قوات الانجلوأمريكان — في يد الانجليز والأمريكان » •

اندعش معظمنا ، لأن مثل هذه المناقشة ، كانت آنذاك ، لا تزال موسيقى المستقبل ، اذ لا تزال القوات السوفييتية عند « ستالينجراد » ، ولم يمض وقت طويل على نزول قوات الحلفاء في جزء من شمالي أفريقيا ، ولم تبدأ بعد حرب العصابات الايطالية ، اللهم الا عمليات بسيطة جدا •

اعتبر « ميخايلوف » ما حدث في المجموعة الايطالية أمرا خطيرا جدا :

« فالخطر الكبير الذى نواجهه الآن هو « المذهبية » ، هو التوقع داخل القوى الوطنية ، وهو خطر عزل الحزب .

« وعلى هذا الأساس ، يجب ادانة هذا الاتجاه بأقصى ما تكون الادانة ، لأنه يضع اسفينا في جبهة الكفاح المتحالفة ضد الفاشية ، ويضعف النضال ضد الفاشية ، ولا يساعد الا الفاشية . من يرى أنه ينبغى على قوات حرب العصابات الايطالية ، اخفاء أسلحتها من حلفاء الاتحاد السوفييتى ، فلا يخدم سوى « هتلر » .

فجرت الواقعة التى حدثت في المجموعة الايطالية حملة شاملة في كل المجموعات ضد « المذهبية » .

اعترفت جهات عليا بعد خمس سنوات بصحة رأى هذا الرفيق ، الذى اعتبر آنذاك أنه لا يخدم سوى الفاشية ، ففى سبتمبر سنة ١٩٤٧ وجه نقد فى مؤتمر مكتب الاستعلامات الشيوعى ، الى رجال حرب العصابات الايطاليين ، لأنهم — تنفيذاً لأوامر موسكو — لم يخفوا أسلحتهم .

احتفال رأس السنة الجديدة السياسى

انتهى عام ١٩٤٢ م بما حدث فيه من حل وتركيب الأسلحة ، وتنظيم وحفظ الأغاني الشعبىة الألمانية ، و « النقد والنقد الذاتى » ، ومكافحة « المذهبية » .

لم يبق على اليوم الأخير من العام سوى بضعة أيام ، وأعلن أن الاحتفال بليلة رأس السنة سيكون فى كل مجموعة على حدة . عندما سمعت — بطريق الصدفة — « باول فانديل » يتحدث مع أحد الرفقاء كبار السن ، عن « تنظيم الاحتفال بليلة رأس السنة الجديدة » لم يكن من الصعب على تخيل طابع الاحتفال فى مجموعتنا .

اجتمعنا فى مساء رأس السنة فى الميعاد المحدد فى حجرة الحلقات الدراسية الباردة ، غير المريحة نفسيا ، وسارت الأمور على نحو ما تسير عليه فى الحلقات الدراسية ، غير أن المناضد وضعت فى يوم الاحتفال بطريقة أخرى ، وغطيت بالمفارش ، وبالإضافة الى ذلك ، فقد حصلنا

على قرع عسلى ، قسم على أفراد المجموعة ، وقامت الفتيات بعمل الشاي ، ولم يكن عندنا مشروبات كحوية ، لأنها كانت ممنوعة منعا باتا .

وعلى الرغم من جو الحجرة القاتم . وطريقة الاحتفال « الغريبة » بالقرع العسلى والشاي ، فقد تحول اجو العام الى نعمة مفرحة ، لم تكن ضمن البرنامج المنظم المرسوم ، ولذا لم يسمح لها بالاستمرار طويلا .

« أعتقد أننا يمكننا أن نبدأ الآن أمسيتنا اللطيفة ، فعلى الرفقاء أن يتفضلوا بالجلوس » .

جلسنا طائعين ، فشعرنا بأننا فى درس من دروس الحلقات الدراسية ، وسار الاحتفال بليلة رأس السنة الجديدة طبقا للبرنامج المرسوم .

أعطى « فنديل » اشارة الى أحد الرفقاء كبار السن ، فنهض واقفا ، وألقى قصيدة شعرية ثورية ، كانت ركيكة ، ثم جلس . ثم أعطى اشارة أخرى ، تقام الرفيق الثانى وقرأ علينا نبذة من كتاب .

والآن ! لم يعد جو حلقة دراسية ، بل انقلب الى سكون تام من المشتركين فى الاحتفال ، وكأنهم فى محاضرة عامة ، فانتابنا شعور بمحاولة الكتابة وراء من يلقون كلماتهم ، وندمنا على أننا لم نحضر معنا أفلاما وأوراقا .

وبعد أن انتهى الثانى ، قام الثالث ، وألقى شعرا أيضا كالأول ، وفجأة حدث ما لم نكن نتوقعه : انفتح الباب فتوقف الرفيق عن القاء الشعر .

لم نصدق أعيننا ، دخل مدير المدرسة « ميخايلوف » وهو يغنى . نظر الينا متعجبا ، ونحن جالسون كالأصنام حول المنضدة ، فنظرنا الى مدير المدرسة غير مصدقين فجو يغنى ، والكل فى دهشة ، ولكن كان « ميخايلوف » أول من أفاق منها ، فعندما رأى المنظر وتحقق منه ، عادت الجدية الى وجهه (كما لو كان ضروريا ذلك عند المجموعة الألمانية فى حفلة ليلة رأس السنة) وجلس على المنضدة ، وارتقب صامتا ، ما يقدم لنا .

وفي غضون ذلك ، عاد الهدوء الى الرفيق ، الذى تسمر من هول المفاجأة ، فواصل القاءه ، وعلى الرغم من أننا كنا جميعا منظمين وصامتين ، فلم نستطع الاستمرار فى تتبع ما يلقى ، ولحسن الحظ انتهت بسرعة •

والآن ! لم يعلم أحد منا بالضبط ، ماذا ينبغي أن يسير عليه البرنامج بعد ذلك • من المحتمل أن « فاندیل » أعد بعض الأشخاص الذين يقفون تبعا لآثارته ، فكل شيء أعد ورسمت خطته ، ماعدا دخول المدير •

تبودلت نظرات التساؤل بين « فاندیل » و « ميخايلوف » ، يبدو أن الالتزام بخط « فاندیل » الرسوم كان مملا • « ميخايلوف » •
عندما رأى أنه لا توجد نغمة مفرحة فى المجموعة الألمانية فى ليلة رأس السنة الجديدة ، كيف نفسه مع الوضع ، وتحدث الينا ، ولكن كان حديثه حرا ، بطريقة أخرى انسانية ، لم أسمعها فى الاتحاد السوفييتى — ولا عند من فى فلکه — قيل هذا اليوم ولا بعده •

تحدث عن أخطار ومحاسن الحياة الثورية ، وفى نهاية حديثه القصير أخرج عود ثقاب من علبة الكبريت ، ثم قال : « ربما أستطيع شرح الأفكار والمشاعر التى أحس بها الآن بطريقة أوضح من ذلك بالمثال » • وفى غضون ذلك كان قد أخرج عود الثقاب وأشعله ، وفى لحظات قليلة احترق العود ، ولم يبق الا رماد قليل •

نظر الينا « ميخايلوف » نظرة عطف ، ولكنها تتبىء عن استغراق فى التفكير :

« أليس هذا مثل حياة انسان عادى ؟ يشتعل أولا ببطء ، ثم يشتد الاشتعال ، وأخيرا يحترق • ولم يبق منه سوى رماد قليل لا قيمة له • الانسان يعيش ، ويعمل ، ويكون أسرة ، ويصبح له أولاد ، ثم يموت ، وتقام عليه الأحزان ، وفى أحسن الأحوال يثيبه أفراد أسرته ، وبعض معارفه — حياة لا فائدة فيها ، ولا ضرورة لها •

فاذا نظرنا الى حياتنا ، فهى على الضد من ذلك ، حياة مليئة بالأحداث والأخطار ، والرحلات ، والسجون ، وتولى المسئوليات داخل الأسرة الكبيرة ، التى نسميها الحزب ، لها هدف ثابت واضح ، هو الحجر الأساسى لعالم جديد ، وبعد الموت تشيعه أعداد كبيرة من الرفقاء • أليس هذا وضعاً آخر ، وضعاً آخر غير عود الثقاب ، الذى لا قيمة له » ؟

كنا جميعا فى حالة ذهول ، فلم يحدثنا أحد قط بهذه الطريقة فى هذه المدرسة •

نظر « ميخايلوف » الى كل واحد ما نظرة فحص وتدقيق ثم قال : « ربما تتذكرون كلمتى فيما بعد ، وخاصة عندما تواجهكم صعوبات ، سوف تساعدكم ، ولكن الآن ، فى ليلة رأس السنة ، ينبغى عليكم أن تتمتعوا بالاحتفال بها احتفالا حقيقيا ، ومن المؤكد أنكم ستسمحون لى بأن أقوم الآن بزيارة المجموعات الأخرى أيضا » •

لم يعد بعد مكان للتسلية والفرح فى هذه الليلة ، اذ كلف بعضنا بالذهاب الى المجموعات الأخرى لتبليغهم تحيات المجموعة ، وكان على أن أزور المجموعة البلغارية ، وتبين لى أنهم التزموا الجديدة أيضا فى احتفالهم كما التزمنا نحن فى المجموعة الألمانية •

عندما عدت الى مجموعتنا لم تكن الساعة قد جاوزت الحادية عشرة ، ولكن احتفالنا بليلة رأس السنة كان قد انتهى •

لم أكن حزينا على أنه انفض ، وذهبت لأتجول قليلا ، وحاولت أثناء تجولى البحث عن جواب لهذا السؤال :

لماذا كان الاحتفال « بليلة رأس السنة الجديدة » جافا وغير طبيعى ؟ اعتقدت آنذاك أنها ظاهرة فردية فى مدرسة الجبهة حيث لا تسمح الأنظمة المفروضة على الدارسين باظهار النعمة المرحة •

ثم تأكدت فيما بعد أنها لم تكن طابع الحياة فى مدرستنا فقط ، بل لم تكن « أمسيات التسلية » التى يقيمها قياديون من الطبقة العليا فى الحزب — وخاصة اذا عاشوا فى الاتحاد السوفييتى فترة طويلة — تختلف عن احتفالنا بليلة رأس السنة الجديدة •

وعندما كفرت « بالستالينية » تأكدت أن ذلك كان ظاهرة حتمية للنظام نفسه ، ظاهرة تتصل بعملية النقد والنقد الذاتى ، الذى يجبر القياديين :

- على وزن كل كلمة ، والتفكير فيها •
- وعلى الخضوع المطلق للزعامة •
- ويحرم عليهم المناقشة الحرة •
- ويعزلهم عزلا تاما عن أن يكونوا أناسا عاديين •
- ويدفعهم الى « التطوير » الذى يقتل كل معانى الانسانية فى الانسان •

خلف الاحتفال « بليلة رأس السنة » ذيولا ، فبعد بضعة أيام ،
دعيت المدرسة كلها الى الاجتماع •

وظهر أن أربعة من المجموعة الأسبانية تناولوا قليلا من الكحول في
ليلة رأس السنة ، اذ قسموا زجاجة خمر صغيرة بينهم • فوجئوا —
الأربعة — باعلان هذا الخبر في بدء الاجتماع ، فقد شرب اثنان منهم
كأسين ، كل واحد كأسا ، والثالث نصف كأس ، أما الرابع فلم يشرب
اطلاقا •

نوقشت المسألة في المجموعة الأسبانية في جلستين للنقد والنقد
الذاتي ، حيث اتخذ قرار بطرد الشبان الأربعة من منظمة الشباب ، فقد
كانوا كلهم أعضاء في المنظمة •

والآن ! طرح الموضوع في اجتماع عام ، ليكون عبرة وعظة
للاخرين • ومرة أخرى كانت هناك بنود اتهام ، وضرب أمثلة ، على منوال
تلك الطريقة التي أعرفها الآن جيدا •

وفي نفس الوقت سلطت الأضواء على « النموذج البراق » للشباب
السوفييتي في المنظمة ، على الرغم من أن كل الحاضرين يعرفون تمام
المعرفة أن آلافا من شباب المنظمة السوفييتي ، كان يشرب الواحد منهم
كل يوم مقدارا من المواد الكحولية أكثر مما أراد أن يشربه الأسبانيون
الأربعة في ليلة رأس السنة •

صودق على قرار طرد الأسبانيين الأربعة من منظمة الشباب ،
ولكنهم عادوا اليها بعد ثلاثة أشهر ونصف ، لأنهم أثبتوا أنهم مثاليون
في تصرفاتهم •

ولكن لم يئنه تطبيق اجراءات النظام دائما بهذه النهاية السعيدة ،
فقد شاهدت حالة بعد ذلك بوقت قصير ، حفرت لها قنوات في ذاكرتي
فلن تنسى مدة حياتي •

طرد الرفيق « فيلى »

كان معنا شاب في مجموعتنا ، يبلغ من العمر ٣٥ عاما تقريبا ،
واسمه الحركي « فيلى » ينحدر من أسرة عاملة ، كانت تقيم في برلين —
أعتقد أنها كانت تقيم في حي « فيدينج » — ، التحق بتنظيم الشباب
الشيوعي وهو حدث وتولى سلسلة من المناصب المتوسطة ، وكان في
اتحاد نضال الجبهة الأحمر • ثم التجأ الى الاتحاد السوفييتي بعد عام

وبعد اندلاع الحرب الأهلية في أسبانيا، التحق بمدرسة عسكرية بالقرب من «ريازا» ، وكانت هذه المدرسة — حسبما علمت — أكبر مدرسة عسكرية لتأهيل الأجانب المناهضين للفاشية الذين يعيشون في الاتحاد السوفييتي ، للقتال في أسبانيا . ثم قاتل مع العرقة العالمية في أسبانيا .

احتل « فيلي » مركزا مرموقا في مجموعتنا ، إذ كانت له خبرة الرفقاء كبار السن ، وفي نفس الوقت كانت لديه القدرة على الاستيعاب السريع مثل الشبان . كان متيقظا جدا ، ومهتما بالدراسة ، وأحب شخصية في مجموعتنا ، فقد تمتع بالاحترام بين الشباب ، وكبار السن .

و ذات يوم ، بعد الظهر ، كان عندنا مناقشة حول بعض المسائل المعاصرة . ولم تكن في هذه المرة تكوين « لجان شعبية » سرية في الخيال ، بل كان موضوعا حساسا : العمل السري ضد الفاشية في الجيش الألماني .

تصيبنا — نحن الشباب — عرقا ودما ، فلم نعمل في جيش قط ، وتركنا ألمانيا ونحن أطفال ، إذن ، لم نعرف ألماني ، ولا العمل في جيش ، فضلا عن التحدث عن لجيش الهتلري الألماني . ولكن لم يفدنا هذا ، إذ تقاطرت علينا الأسئلة ، وكان علينا أن نكون تنظيمات سرية في جيش « هتلر » ، بالضبط كما فعلنا في تكوين اللجان الشعبية في المدن والقرى .

لم تكن المسألة صعبة علينا ، لأننا لا نعرف شيئا عن الوضع في الجيش الألماني — بصرف النظر عن لمعلومات التي وصلت إلينا عن طريق المنشرات وخطابات الجنود — بل لأننا نقع عند معالجة هذا الموضوع في صراع ميثوس منه ، فقد شدد علينا بأنه لا بد أن تكون السرية محكمة ، فلا يجوز لأعضاء المجموعة السرية ، أن يتركوا أثرا للتعرف عليهم ، ولكن في نفس الوقت ، يجب أن تقوم مجموعتنا السرية المخضوطة على الورق ، بمعجزات في نشاطها بين صفوف الجيش .

ضربت الأمثلة في هذه الحلاقة ، حيث كنا نمثل فيها دائما دور زعيم هذه المجموعة السرية ، الذي يفاجأ بسؤال من « فاندیل » : « ماذا تفعل لو . . . ؟ »

و ظهر في هذه المرة أن سلسلة سؤال « ماذا نفعل لو . . . ؟ » لا نهاية لها مطلقا .

لقد كان من المسائل التي عرضت علينا هذا المثال :

كانت هناك مجموعة سرية تعمل في إحدى وحدات الجيش ، التي تعسكر في إحدى المناطق المحتلة في الاتحاد السوفييتي ، تلقت إحدى سرايا الصغيرة في هذه الوحدة — حيث توجد المجموعة السرية — أمرا بإحراق المنازل ، وقتل النساء والأطفال الروسين .

اضطربت عندما سمعت « فاندليل » يسأل :

« ماذا تفعل في هذه الحالة ، كزعيم للمجموعة السرية » ؟

تلقت « فاندليل » ثم طلب الاجابة من « فيلي » ، فقال :

« لا يمكن أن أدع شيئا ينبىء عن عملي السري بأى حال ، وتحت أى ظرف من الظروف ، فقد تعلمنا بأن الجيش هو أهم شيء في نشاط التنظيمات السرية ، وأنا لا يجوز لنا كمجموعة خاصة ، كشف شخصيتنا للعدو أبدا » .

قال « فاندليل » :

« حتى ولو ارتكبت جنود من نفس السرية أعمالا مخزية ضد

الشعب السوفييتي » ؟

اضطرب « فيلي » :

« نعم ! لا أعرف ، ولكن أعتقد . . . ان المرء حتى في هذا الموقف

الصعب . . . من المحتمل . . . بلى ، ربما لا يجوز للمرء حتى في

هذا الموقف الصعب أن يتسبب في القضاء على المجموعة السرية » .

صمت كثير منا ، وأنا أيضا ، فنحن لا نعلم — ونحن جالسون هنا في

« بشكيرين » — ماذا ينبغي أن يفعل المرء في مثل هذا الموقف ! وعلى أى

حال فقد شعرنا بأننا سوف نعلم ذلك عندما نوضع ذات يوم في مثل

هذه الظروف ، ولكن الأمر هنا لا يخرج عن كونه افتراضا نظريا ، ولذا

قرر كثير منا التزام الصمت .

حتى « فاندليل » نفسه ، لم يقل شيئا ، واستمرت المناقشة في

طريقها ، فتحدث ثلاثة أو أربعة في موضوع آخر ، وفجأة وقف

« فاندليل » ، فساد الصمت الحجرة كلها ، نظر الينا مندهشا ثائرا :

« أحس أن لا أحد في المجموعة ، لاحظ حتى الآن ، أنه قد حدث

هنا شيء فظيع ، غير معقول » .

ملاحظة ذات مغزى ! لم ينبس أحد منا بكلمة . كنت معتقدا حتى

الآن أن لى حاسة خاصة لاكتشاف المسائل السياسية ، ولكنى لاحظت

(م ١٩ — نظام الحكم الشيوعي)

أنى لا زلت بعيدا عن امتلاك هذه اخاصية • لم أعرف ، ماذا يقصد ؟ ثم تذكرت ما قاله « فيلى » • هل كان هذا هو ما قصده « فانديل » ؟ طرحت هذا التفكير بعيدا بسرعة ••• وأخيرا قال « فيلى » انه لا يعلم الحل بالضبط ، وعلاوة على هذا ، فالمسألة معقدة جدا •

وفي غضون ذلك ، استمر « فانديل » فى القاء خصبته • لم تنزل حتى الآن كلاما عاما ، اذ تحدث عن النضال البطولى للشعب السوفييتى ، وعن وحشية الجيش النازى ، وفجأة — كالبرق الخاطف — وصل الى توجيه الاتهام المباشر : « ••• وفى مثل هذا الموقف ، حيث يكون من واجب معارضى الفاشية المقدس ، شن النضال ضد الفاشية ، يبين « فيلى » دون استحياء ، أنه يقف مكتوف الأيدى أمام الوحشية ، التى يرتكبها النازيون ضد الشعب السوفييتى • ليس هذا خطأ سياسيا ، بل هو أكثر من هذا ، هو خيانة الكفاح المقدس ضد الفاشية ، خيانة حركة العمال الألمانين ، خيانة أول بد يرفع لواء الاشتراكية ، ألا وهو الاتحاد السوفييتى » •

انشغلنا بمناقشة هذا الموضوع بجدية وحزم فى الأيام التالية ، وانتظرت حتى أسمع رأى كل واحد غيما قاله « فيلى » •

ساد صمت قاتل عدة لحظات ، فقد تعودنا على الكثير ، ومارسنا مرات عديدة عملية « النقد والنقد الذاتى » ، ولكن لم نسمع فى مرة من جلسات النقد السابقة هجوما قاسيا وعنيفا ، مثل ما يتدفق اليوم من أفواه المتكلمين •

لاحظت أن « فانديل » لم يعد يخاطب « فيلى » بلفظ « أيها الرفيق » • هل كانت مصادفة دون قصد ؟ هل سيتخذ اجرء ضد « فيلى » ؟ ولكنى تخلصت من هذه الأفكار ، اذ لم تصل المسألة الى هذا الحد •

وفي غضون ذلك رفع كثير منا أيديهم ، ولكنى نتظرت ، تحدث واحد بعد الآخر ، فصبوا جام غضبهم على رأس « فيسى » لقد أمطرت السماء عليه وابلا من اللعنات •

كان صديقى « جان » يجلس فى آخر الصفوف ، وهو من المعرمنين بالمارشال « شوكوف » ويمدح فيه كثيرا • وكان الوحيد من الشبان ، الذى يعرف شيئا عن الحياة فى انجيش ، فقد أقام عدة شهور فى الجيش

الأحمر • كان عنده نقطة ضعف ازاء المواقف الصعبة ، وفضلا عن ذلك
فلا يزال أشجع الجميع •
طلب الكلمة :

« كنت في الجيش ، وقمت بأعمال مع الأقسام ، التي تنظم مثل
هذه الأشياء • يمكن أن يحدث هذا الموقف في حالات خاصة نادرة جدا •
فاذا كان الأمر — على سبيل المثال — يتعلق بـ..... » •
قاطعه « فاندیل » بحدة :

« لم نأت الى هنا لنحكي قصصا خيالية ، بل لنتخذ موقفا من
أقوال « فيلى » التي تتبىء عن خيانه » •
ولكن الثاب « جان » الشجاع ، كان مقتنعا بفكرته الى حد الاعجاب
بها فقال :

« أيها الرفيق « كلاسنير » أنا لا أريد سوى شرح حالة واحدة ،
حالة شاهدهتها بعيني في الجيش » •
ولكن لم يستطع « جان » أن يتم حديثه •
— « اسكت الآن ! أنا أسحب منك حق الكلام » •

سكت « جان » خجلا ، ولم يستطع أن يدافع عن « فيلى »
بصراحة ، ولكنه حاول أن يضع له قاعدة ، لدفع التهمة عنه •
وشيئا فشيئا أبدى كل واحد في مجموعتنا برأيه ، ثم رأيت
« فاندیل » ينظر الى مرتين ، ولكنى لا زلت صامتا ، وأخير عندما تحدث
الجميع ولم يبق سوى واحد غيرى نادى « فاندیل » اسمى •

فقلت : « أيها الرفقاء ! لا أحد منا يريد أن يستهين بمدى خطورة
كلام « فيلى » كذلك في المواقف الحازمة التي يجب أن يقاس فيها مثل
هذه الانجازات ، لا ينبغي أيضا أن يستهان بالصعوبات التي تقابل من
ببدي رأيه في هذا الموضوع • كلنا يعرف الرفيق « فيلى » وكلنا يعلم
أن « فيلى » كان دائما نموذجا » •

ولم أستطع الاستمرار في الكلام ، فقد قاطعني « فاندیل » :
« لا تحاول المراوغة هنا ، فالموضوع يدور مبدئيا حول مسألة سياسية ،
فنحن لا نحتاج الى تصيد أساليب المدح » •

صمت • اذ لم أستطع الحكم عليه بصراحة ، على الرغم من أنى أعلم
تماما أن هذا سيوقعنى مرة أخرى في مأزق النقد والنقد الذاتى •

انتظر « فانديل » ، ولكنى استمررت فى صمتى ، فنظر الى كثير من مجموعتي مندهشين ولائمين • ثم أخذ الكلمة « سيب » كآخر متحدث فى المجموعة ، ذلك الشاب الذى حارب مع « فيلى » فى أسبانيا ، وكان صديقا حميما له منذ سنوات عديدة • والان ! يصب اللعنات على رأسه •

وبعد كلمة ختام من « فانديل » انتهت مناقشتنا حول العمل السرى فى الجيش •

وفى مساء اليوم دعى جميع أعضاء المجموعة الى جلسة فى حجرة المدير وكنا نعلم أنها سوف تدور حول موضوع « فيلى » •

انتابنى الفزع عندما فكرت فى أننا سنضطر الى الكاتيم مرة أخرى ، ولكن لحسن الحظ لم يحدث هذا • حضر الاجتماع كثير من رؤساء المجموعات فى المدرسة ، ولم أشاهد هذه الظاهرة فى المدرسة من قبل ، وكان كثير من مدرسى مجموعات الدول الأخرى حاضرا أيضا •

تحدثوا كلهم تقريبا ، وكنا نحن تلاميذ المجموعة الألمانية مستمعين فقط فى هذه الجلسة •

ومرة أخرى شاهدت نفس المسرحية التى شاهدتها فى عملية النقد والنقد الذاتى الأولى ، ولكن كان الكلام هنا أكثر حدة ، والهجوم أشد فظاعة •

« فيلى » المسكين ! لقد خدم الحزب مدة حياته كلها ، وقاتل ثلاثة أعوام تقريبا فى أسبانيا تحت أصعب الظروف وأقساها • والان ! يتهم بسبب جملة قصيرة قالها فى الحلقة الدراسية ، بجريمة « مساعدة الفاشية » و « الدعوة الى السلبية فى النضال ضد هتلر » • الخ ، حتى شبهه أحد الخطباء بـ « فرانكو » •

ذكر اسمى واسم « جان » فى ثنايا هذه الخطب ، فقد اتهم « جان » بالاغراق فى الخيال ، واتهمت أنا بالمرأوة ، ولكن كان واضحا أننا كنا فى هذه المرة ، صورا جانبية لا أهمية لها فى هذا الموضوع ، فقد كانت لعنات « النقد والنقد الذاتى » موجهة كلها ضد « فيلى » •

جلس « فيلى » فى أثناء ذلك على كرسى جانبي مبعلقا ، ولم ينبس بكلمة واحدة •

مضت ساعات ، وأفراد هيئة الادعاء يكررون ما يقولون ، ولكى

يهيأ الجو الفظيع — الذى يسيطر على جلسة « النقد والنقد الذاتى » ولا يمكن وصفه — عن طريق الاستمرار والتكرار •

وفجأة عندما اعتقدنا أن الجلسة قاربت النهاية — ازدادت حدة النغمة فقد تحدث أحد الخطباء عن النتائج الهامة ، التى يمكن أن تستخلص من موقف « فيلى » ، لأن هذه الحالة تفوق كل ما حدث فى المدرسة حتى الآن • ثم سأل بلهجة بالغة الحدة عما اذا كان سيسمح لـ « فيلى » بالبقاء فى مدرسة الجبهة بعد الذى حدث منه ، أو ينبغى أن يطرد منها • ولم يقتصر الخطيب على القاء السؤال فقط ، بل أجاب عليه بسرعة •

لا فائدة من هؤلاء الأشخاص — لم يعد يستعمل كلمة رفيق هنا أيضا — الذين يقفون مكتوفى الأيدي أمام اغتيال المواطنين السوفييت ، وينشرون مثل هذا التصرف بين صفوف الحزب الشيوعى • لا مكان فى مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية لأولئك الذين يساعدون الفاشية بمواقفهم التى يلتزمون بها •

كرر « ميخايلوف » هذا القرار أيضا فى كلمته الختامية • أصبت فى هذا المساء بضربة قاتلة ، كانت أشد مما أصبت به فى جلسة « النقد والنقد الذاتى » التى كانت موجهة ضدى •

لم أتأثر نفسيا من شدة القسوة ، وانعدام الاحساس القلبنى فقط ، بل أيضا من مواقف أولئك الذين اتهموا « فيلى » وطالبوا بطرده من المدرسة ، فقد علم كل منهم تماما أن « فيلى » كان قياديا مخلصا وأمينا ، وكان يمكن أن يظل كذلك مستقبلا • وما أجاب به فى الحلقة الدراسية — ويعلم الجميع ذلك — لم يكن سوى تعبير عن الحيرة ، عند الاجابة على موقف مفترض وجوده افتراضا • وقد ظن « فيلى » أن من اللازم استخدام تلك الأسس التى شرحت لنا دائما فى كل الدروس عن العمل السرى ، على أنها الواجب الأعلى والأهم •

أعنى الحفاظ على السرية التامة ، وعدم التفريط فى أمر من شأنه أن يكشف أمر المجموعة السرية •

لم تتسبب الكلمات القليلة — التى قيلت فى الحلقة الدراسية — فى طرد « فيلى » من مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية فقط ، بل أصبح من المؤكد أنها ستطرده من الحزب أيضا ، وتعزله عن كل عمل سياسى فى المستقبل • وهذا يعنى أنه سيهوى الى أدنى طبقات

الشعب السوفييتى : الى حياة المحروم من الانضمام الى الحزب : الى حياة أجنبى مشكوك فى ولائه ، يعيش فى احدى المزارع الجماعية النائبة ، أو حياة عامل صغير ، عتال فى أحد المصانع السوفييتية القاصية ، وفى معظم الأحوال كان هذا مرحلة انتقالية ، فقط للوصول لى السجن أو لى أحد معسكرات العمل . كان هذا واضحا لنا جميعا ، على الرغم من أنه لم يصرح به فى اجتماع المجموعة ، ولا فى جلسة « النقد والنقد الذاتى » فى حجرة المدير .

لم يتخذ قرار رسمى ، ولكن كان كل واحد منا يعلم بالطبع ، علام تدل أحداث هذا المساء .

لم يقل « فيلى » كلمة واحدة . ذهب الى حجرة النوم ، وحزم أمتعته ، ثم اختفى فى اليوم التالى . نجحت فى التحدث معه حديثا قصيرا ، عندما كنا وحدنا ، فواسيته ببضعة كلمات ، ولكنه لم يجبنى ، لم تخرج كلمة واحدة من بين شفتيه .

ولم نسمع منذ ذلك التاريخ شيئا من الجهات الرسمية عن « فيلى » ولكن فيما بعد جرى همس بين الزملاء بأنهم أرسلوه الى « كاراجندا » ، غير أنى لم أستطع التأكد من هذا الخبر .

لم يذكر « فانديل » ولا أحد من المدرسين الآخرين اسم « فيلى » بعد هذا اليوم ، وبدا وكأنه لم يوجد واحد اسمه « فبلى » على ظهر هذه الأرض ، ولكنى لم أستطع نسيانه ، فقد تكرر تفكيرى فى هذا العامل « البرلينى » الذى ضحى بالجزء الأكبر من حياته تحت أصعب الظروف فى خدمة الحزب ، ثم قذف به كما تقذف قطعة حديد قديمة ، بسبب كلمات قليلة ، تلفظ بها فى احدى الحلقات الدراسية .



حل مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية

مضى الآن تسعة أشهر ، منذ دخولى مدرسة الجبهة ، فقد بدأت دراستى فى منتصف أغسطس سنة ١٩٤٢ م ونحن الآن فى مايو سنة ١٩٤٣ م . ولا أحد منا يعلم ، متى تنتهى الدراسة ! فعندما ننتهى من دراسة موضوع . يعلن عن آخر ، ربما اتبعت هذه الطريقة لتهيئة

الفرصة — تحت الظروف الطارئة — لدارس أو لمجموعة في الانقطاع عن الدراسة •

حدث هذا في دورتنا الدراسية مرة واحدة فقط ، فقد تركت المجموعة « السلوفاكية » المدرسة فجأة في فبراير سنة ١٩٤٣ م ، ولم يكن هذا نتيجة « النقد والنقد الذاتى » بل تعلقت المسألة باستدعائهم لعمل سياسى •

فقد فهمنا من التلميح في محاضرتنا ، وسمعنا في الأحاديث الخاصة أن من الدول المتحالفة مع المحور ، لا توجد دولة أنسب للعمل السرى نسبيا غير « سلوفاكيا » • ليس فقط في امكانية الحصول على مساعدة الشعب ، بل قيل لنا ان رجال الشرطة يغمضون أعينهم عن بعض الحالات التى تتعلق بشخص يعمل ضد « هتلر » •

ولهذا لم نفاجأ ، عندما قابلنا رفقانا « السلوفاكيين » في فبراير سنة ١٩٤٣ أمام مبنى المدرسة ، حيث كانت تنتظرهم العربات المترحلة على الجليد ، التى ستنقلهم الى « أوا » • وطبعا لم يخبرونا بوجهتهم ، غير أنه كان واضحا للجميع أن المسألة تتعلق بتجنيدهم لنشاط في « سلوفاكيا » •

وفيما بعد ، في أوائل سنة ١٩٤٤ م عندما اندلعت اضطرابات ضد الفاشية في شرق « سلوفاكيا » علمنا أن كل أفراد المجموعة التى كانت في المدرسة ، ائتركوا بنصيب كبير في هذه الاضطرابات •

وبعد عام ١٩٤٥ كرمت تشيكوسلوفاكيا الجديدة كل الذين أسهموا في اضطرابات « سلوفاكيا » • ولكن لم يدم هذا طويلا ، فكلما ارتفع الدور القيادى للاتحاد السوفييتى — وخاصة بعد عام ١٩٤٨ م — كلما طمست في « تشيكوسلوفاكيا » مظاهر تذكر الاضطرابات « السلوفاكية » والحركات التى كانت مناوئة للفاشية • وأخيرا — في أوائل عام ١٩٥٠ م — أدين زعماء الاضطرابات السلوفاكية : « هوزاك » و « نوفومجسكى » ، ومئات من الذين ائتركوا معهم ، وألقى القبض عليهم •

وهكذا يوضح لنا مثال الاضطرابات « السلوفاكية » من جديد أن « الستالينية » لا تخاف من شىء ، أكثر من خوفها من حركاتها الثورية ، التى أنشأتها ، وكونتها من أتباعها ، فلم تتورع « الستالينية » من الاستفادة من بعض الانجازات الثورية هنا وهناك لخدمة أهدافها

الخاصة ، فاذا تمكنت سلطتها ، وثت بالمشتركين في الحركات الثورية ، ثم يلقي بهم في غياهب السجون ، وقد ينفذ فيهم حكم لاعدام ، حتى نورتهم الخاصة ، لا يجوز للشعب أن يتذكرها ، بل يدخل عليها التحريف ، أو يلقي ستار من الصمت عليها ، كى يهيا الجو فيما بعد « لدور الجيش السوفييتى فى معركة التحرير » و « لدور الزعامة السوفييتية » التى خططت ، ونظمت المعارك التى خاضها الجيش ، فحرر وطنه •

لم نكن نعرف شيئا من ذلك آنذاك فى فبراير سنة ١٩٤٣ • ودعنا أصدقائنا أعضاء المجموعة « السلوفاكية » ، وتمنينا لهم كل خير ، ونجاحا ساحقا ، ثم عدنا الى الاندماج فى دراستنا ، دون أن نعلم ، الى متى سنمكث فى مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية • كان عندنا فى هذا الخصوص نقطة جوهرية : سلسلة محاضرات تاريخ الشيوعية العالمية ، اذ لم نأخذ هذه المادة فى سلسلة واحدة ، بل كانت تسير فى خط مواز لمواد الأخرى ، وكان واضحا أن هذا الموضوع سينتهى فى نهاية الدورة الدراسية •

وصلنا فى منتصف مايو فى مادة تاريخ الشيوعية العالمية الى عام ١٩٣٤ م ، ولم يكن من الصعب التنبؤ بأننا سوف نمكث فى المدرسة — على أقل تقدير — ثلاثة أو أربعة شهور أخرى • وسمعنا من بعض الدارسين ، أن الدورة الدراسية فى مدرسة الجبهة قد خفضت أثناء الحرب الى سنة واحدة • وهكذا تهيأنا نفسيا للبقاء فى « كوشنارينكوفو » حتى أغسطس أو سبتمبر سنة ١٩٤٣ • وكان هذا بالتأكيد خطة قيادة المدرسة ، ولكنها قلبت رأسا على عقب بواسطة « سلطة عليا » •

كان تاريخ اليوم ١٦ مايو سنة ١٩٤٣ • أردت الخروج الى الفناء بعد الانتهاء من حلقة دراسية ، فرأيت مجموعة من الدارسين واقفة فى صالة المدرسة • كتت أعلم أنه بين الحين والآخر تعلق بعض التعليمات على لوحة الاعلانات ، ولكن لم أر حتى الآن مثل هذا العدد الكبير من الطلبة واقفا أمام هذه اللوحة •

فاقتربت منهم لأستكشف الخبر :

لم تعلق هذه المرة تعليمات قصيرة على اللوحة ، بل أربع صفحات كبيرة ، مكتوبة على الآلة الكاتبة ، والطلبة منهمكون فى قراءتها باهتمام بالغ ، وصمت مطبق • ثم اكتشفت صديقى « بيتر تسال » بين الواقفين ، نظر الى مرتعبا فقلت له :

— « ما الخبر » ؟

• « لقد حلت جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية »
وقفت كالأبله ، اذ لم أكن أتصور هذا اطلاقا .

— « هذا مستحيل » !

— « بلى .. اقرأ » !

وفي غضون ذلك كان البعض قد انتهى من قراءة النص ، وانصرفوا دون أن يقولوا كلمة واحدة .

ثم أفسح مكان لى وللذين وصلوا توا للوصول الى النوحة . قرأت هنا — على لوحة الاعلانات ، وفي صالة مبنى مدرسة الجبهة — قرار حل جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية ، وتقول الفقرات المهمة في القرار :
« دات حوادث الخمس وعشرين سنة الماضية وكذلك خبرة الشيوعية العالمية ، دلالة قاطعة ، على أن صيغة تنظيم اتحاد العمال — كما تقررت في المؤتمر الأول للشيوعية العالمية ، لضرورة اقتضتها الفترة الأولى لاهياء الطبقة العاملة — قد تخطت أخطار نمو هذه الحركات ، والمشاكل المعقدة في تلك البلاد . هذه الصيغة أصبحت الآن عائقا في طريق تقوية الأحزاب العمالية الوطنية . وزادت الحرب العالمية — التي شنها النازيون — تعميق التباين في علاقات الدول المختلفة ، حيث أنشأت خطأ فاصلا بين الدول التي تقع تحت جبروت النازية ، وبيز الدول التي تقود الشعوب الحرة في تحالف ضد هتلر .. »

وانطلاقا مما سبق ذكره ، ومراعاة لنمو الأحزاب الشيوعية ، ونضج زعمائها في كل دولة على حدة ، ومراعاة لحقيقة أن عددا من القطاعات — أثناء الحرب الدائرة الآن — اقترح حل جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية ، والغاء صفتها كمركز موجه للحركة العمالية العالمية ، فقد خولت اللجنة المركزية العليا للشيوعية العالمية لنفسها — حيث ان ظروف الحرب العالمية لا تسمح بعقد مؤتمر عام للشيوعية العالمية — الحق في اتخاذ ما يلي :

* تحل جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية ، وتزال صفتها كمركز للحركة العمالية العالمية وتعفى قطاعات الجبهة من كل المسؤوليات التي تولتها بمقتضى قرار مؤتمر الشيوعية العالمية .

* وتدعو رئاسة اللجنة العليا للشيوعية العالمية كل أفراد جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية بأن يركزوا كل قواهم في جميع النواحي لمساندة

الحلفاء في تحرير الشعوب والدول من طغيان « هتلر » وللقضاء السريع على أعداء الشعوب : الفاشية الألمانية وحلفائها •

وقع على هذا القرار من رئاسة اللجنة العليا للشيوعية العالمية :
« جوتفالد » و « ديمتروف » و « شدانوف » و « كولاروف »
و « كوبلينج » و « كوزينين » و « مانوئلسكى » و « مارتى »
و « بيك » و « توريتس » و « فلورين » و « اركولى » •

لم أعرف — كما لم يعرف أحد من الدارسين أيضا — ماذا أقول،
تعليقا على هذا الخبر !

كانت جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية حتى قبل بضعة دقائق أكبر
تنظيم لنا •

لم ينشر قرار حل الجبهة في الصحافة السوفييتية •
مثل الموقعون على قرار الحل ثمانى دول :

الاتحاد السوفييتى « شدانوف ، ومانوئلسكى » ، وألمانيا
« بيك ، وفلورين » ، وفرنسا « توريتس ، ومارتى » ، وبلغاريا
« ديمتروف ، وكولاروف » ، والنمسا « كوبلينج » ، وتشيكوسلوفاكيا
« جوتفالد » ، وفنلندا « كوزينين » ، وإيطاليا « اركولى » — كان
هذا اسمه الحركى المعروف به فى الاتحاد السوفييتى أما اسمه الحقيقى
فكان « بالميرو توجلياتى » •

لم يوقع على قرار الحل زعماء أحزاب شيوعية ، كانوا فى ذلك
انوقت فى « أوبا » وفى « كويبيشيف » مثل زعيم الحزب الشيوعى
الأسبانى « دولوريس ابارورى » والرومانى « أنا باوكر »
والمجرى « راكوزى » لأن الاثنى عشر لم يوقعوا على قرار الحل
بصفتهم زعماء الأحزاب الشيوعية فى بلادهم ، بل كأعضاء اللجنة العليا ،
انتخبوا لهذه المناصب فى آخر مؤتمر للشيوعية العالمية •

من الواضح أن القرار اتخذ بسرعة ، وكان فيه عنصر المفاجأة ،
اذ لم تبلغ به قبل صدوره زعامة الأحزاب الشيوعية الأخرى ، ليؤخذ —
على الأقل — رأيها فيه •

انتشر الخبر بسرعة فى أرجاء المدرسة ، فدار كثير من الدارسين
هنا وهناك وأعصابهم متوترة •

أعلن ظهرا أن « ميخايلوف » — مدير المدرسة — سافر الى
« أوبا » ، وسيقود فى غضون الأيام التالية • واستمرت الدروس

كالمعتاد في أثناء غيبته ، ولكن لم يكن اهتمامنا كله موجها الى التحصيل ، بل جزء منه فقط •

عاد « ميخايلوف » بعد ثلاثة أيام من « أوبا » فدعى بسرعة الى اجتماع عام لكل من في المدرسة ، وموضوع البحث « حل جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية » •

سمعنا كثيرا محاضرات تعالج موضوعات خاصة وعامة ، وعلما أنها كانت تأتي دائما بمفتاح المشكلة التي من أجلها عقد الاجتماع لسماع المحاضرة ، ولكن لم تكن الأعصاب مشدودة في يوم من الأيام ، كما كانت مشدودة قبل هذه المحاضرة •

بدأ « ميخايلوف » بملاحظة أن المرء يجب أن يكرس جهده ضد رأيين خاطئين في مسألة حل جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية • الأول : ضد الافتراض الذي يروجه النازيون ، بأن حل جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية ليس الا حيلة ومناورة ، بل والواقع أن نشاطها سيستمر • فحل الجبهة ليس حيلة ولا مناورة ، بل قرار حقيقي ، اتخذت الاجراءات لتنفيذه مباشرة ، وسوف يتمكن كل منكم من الاقتناع بهذا ، لأن من المسلم به أن مدرسة الجبهة قد حلت أيضا ، كذلك كل المؤسسات التي كانت تابعة حتى الآن لجهاز جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية •

الثاني : تروجه بعض الدوائر الغربية ، حيث يزعمون أن حل الجبهة هو اذعان الاتحاد السوفييتي لحلفائه الغربيين • لا يتفق هذا الادعاء مع الحقيقة في شيء ، اذ لا تتعلق مثل هذه المسائل — كمسألة حل الجبهة — بتقلبات السياسة الخارجية ، بل هي طبيعة بديهية •

وأخيرا تناول « ميخايلوف » شرح الأسباب الرسمية لحل الجبهة ، فالسبب الحقيقي — استمر « ميخايلوف » في حديثه — يكمن في أن تكوين الشيوعية العالمية قد جاوز وقته ، اذ هي الآن تعوق نضال الأحزاب الشيوعية في كل جبهات القتال ضد الفاشية ، ولم تعد الواجبات المختلفة التي تقوم بها الشيوعية العالمية في البلاد المختلفة صحيحة • ثم شرح « ميخايلوف » :

« فقد كانت واجبات الجبهة في الأعوام الأولى بعد تكوينها متشابهة عموما في البلاد المختلفة ، باستثناء حالات وطنية خاصة ، فاذا قارنا هذا بالوضع الحالي وضح لنا التباين الأساسي ، فمن واجب الشيوعيين

في انجلترا وأمريكا اليوم مساندة الجهود الحربية في بلادهم ، ويجب على الشيوعيين في ألمانيا وإيطاليا عمل العكس تماما ، لكي ينزلوا الهزيمة بالفاشية • وعلى الشيوعيين في البلاد المحتلة أن يقفوا في مقدمة الوطنيين في الجبهة ضد الفاشية ، تحرير بلادهم من الاحتلال الفاشي • توضح لنا هذه النظرة القصيرة ، كيف أصبحت الالتزامات اليوم مختلفة من بلد الى آخر » •

بين « ميخايلوف » أن التطور الذي أدى الى حل جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية كان استمرارا للاتجاه السياسي الذي تقرر في المؤتمر السابع للشيوعية العالمية الذي انعقد في عام ١٩٣٥ م • فقد أظهرت أمثلة عديدة — بعد المؤتمر العالمي السابع — أن التنظيم الذي يشرف على كل شيء — مثل جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية — يعوق التحرك السريع • وقد كان الوضع — مع الجبهة — صعبا على الشيوعيين في العثور على صيغة سياسية جديدة •

« فكما تعلمون أن الحزب الشيوعي الأمريكي ، قد انفصل عن جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية في عام ١٩٤٠ م ، لأن القاتون في أمريكا لا يسمح بوجود تنظيم يكون مركزه الموجه له خارج الولايات المتحدة • ومما لا شك فيه أن قرار الحزب الشيوعي الأمريكي الانفصال عن الجبهة ، لم يكن قرارا خاطئا ، لأنه آمن بهذا الاستمرار في العمل السياسي •

لم يقل « ميخايلوف » حتى الآن — باستثناء بيانه ، الرأيين الخاطئين — الا القليل مما ورد في نص القرار المعلق على لوحة الاعلانات حتى انفصال الحزب الشيوعي الأمريكي ، ورد كمثال في نص قرار الحل • اعتقدنا أن « ميخايلوف » سيحصر نفسه في تكرار ما جاء في القرار وحيثياته • وفجأة سمعنا شيئا لم يذكر في نص القرار :

« أيها الرفقاء •• ليس مثال الحزب الشيوعي الأمريكي الا اشارة الى التعارض بين الواجبات الجديدة ، وصيغة النظم البالى لجبهة الأحزاب الشيوعية العالمية • فقد حدث شيء مشابه قبل هذا بكثير ، أمثلة أكثر أهمية ، فأنتم جميعا تعلمون قصة تكوين حزب الاتحاد الاشتراكي « الكاتالوني »

الذي تكون في عام ١٩٣٦ م من الحزب الاشتراكي و لحزب الشيوعي

وعدد من المجموعات الماركسية الأخرى • ولعب هذا الجذب دورا كبيرا في الحرب الأهلية الأسبانية •

وكان طبيعيا أن يظهر على السطح — بعد اندماج الحزبين والمجموعات الأخرى في حزب واحد مباشرة — هذا السؤال : هل ينبغي على الحزب الجديد أن ينضم لمجموعة الشيوعية العالمية الثانية أو الثالثة ؟ ولم يكن الجواب على هذا السؤال سهلا ، لأن تكوين مثل هذا الحزب : الجديد في نوعه ، لم في إطار كلا المجموعتين العالميتين • وهذا مثال واضح على أن قيام جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية لا يتفق مع التطور الجديد » •

ثم تحدث « ميخايلوف » عن رغبة زعماء بعض الأحزاب في توقف نشاط الجبهة أو حلها •
فانتظرنا بأعصاب مشدودة أن يشير الى مصدر اقتراح الحل ، من أي حزب خرج ! إذ لم يذكر شيء محدد في هذا الصدد في قرار الحل • قال « ميخايلوف » :

« اقترح بعض زعماء الأحزاب في فترة ما بعد انعقاد المؤتمر السابع في عام ١٩٣٥ م ، خلخلة ترابط الجبهة ، بل اقترحوا حلها مباشرة • وظهر هذا في مذكرة هيئة زعامة الحزب الشيوعي السويدي » •

ظننا في أحزاب مختلفة ، ولكن لم يظن أحد منا أن مصدر هذا الاقتراح هو الحزب الشيوعي السويدي ، والأهم من هذا أن مذكرة الحزب الشيوعي السويدي لم تذكر فيما بعد في الحلقات الدراسية المتعددة التي ناقشنا فيها موضوع « حل جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية » • فهنا الإشارة وسكتنا فلم نتحدث عنها بشيء ، ولم يتضح لي حتى الآن ، لماذا ذكرت المذكرة السويدية في أول محاضرة ، ثم ألقى عليها ستار من الصمت فيما بعد • وضح لنا ضرب المثل الأسباني — وكذلك ذكر مذكرة الحزب الشيوعي السويدي — أننا لن نقصر في مناقشتنا موضوع حل الجبهة على أمثلة وحجج قرار الحل •

أصبح هذا واضحا لنا بعد دقائق قليلة ، عندما بدأ « ميخايلوف » يتحدث عن الأحداث التي لم ترد في قرار الحل :

« وأخيرا أحب أن أذكر لكم أوضح مثال حدث في الأسابيع الأخيرة ، يرينا بوضوح ، كيف تعثر نشاط الأحزاب الشيوعية في بعض البلدان نتيجة لارتباطها بجبهة الأحزاب الشيوعية العالمية •

« فأنتم قد تتبعتم — بلائسك — باهتمام بالغ ، طلب انضمام الحزب الشيوعي الانجليزى الى حزب العمال ، أنتم تعلمون أن هذه المسألة تلعب دورا كبيرا الآن فى الحياة السياسية لحركة العمالية الانجليزية ، فقد قضى قبول الحزب الشيوعي الانجليزى فى حزب العمال على عزلة الشيوعيين الانجليز ، ونتج عن ذلك التحامهم بالجماهير العمالية البريطانية • لقد أيد جزء كبير من حزب العمال انضمام الحزب الشيوعي اليهم ، وبعضهم كان معارضا ، وكانت الحجة الرئيسية للمعارضين أن الحزب الشيوعي الانجليزى مرتبط بجهة الأحزاب الشيوعية العالمية •

« نحن لا نشك فى أن حل الجبهة بالنسبة للحزب الشيوعي البريطانى — كما هو بالنسبة لكل الأحزاب الشيوعية الأخرى — تخفيف للعبء الذى كان يعوقهم عن الحركة » •

ثم تناول « ميخائيلوف » بعد هذا المثال تحليلا تاريخيا عن الاتحادات العالمية داخل الحركات العمالية ، حيث أشار بنوع خاص الى العالمية الأولى . لقد أوضح تاريخ الحركات العمالية ، أن التنظيمات العالمية ضرورية جدا فى بعض مراحل التطور ، ولكن يمكن أن تكون فى فترات أخرى عائقا لتطور الأحزاب العمالية فى بعض البلدان •

كان تكوين العالمية الأولى فى عام ١٨٦٤ م تقدما كبيرا ، وأنجزت واجباتها فى مدى عشر سنوات ، ثم دخلت مرحلة كان فى استطاعة بعض القطاعات فيها أن تتطور فى البلدان التى تتواجد فيها الى حزب عمال قوى ، ولكن اجتواءها فى العملية الأولى كان قيادا ينبغى كسره ، لتتمكن هذه القطاعات من القيام بواجبها •

كذلك تأسيس العالمية الثالثة فى عام ١٩١٩ م • كان اجتواء عالميا لكل الثوريين ، الذين يقفون على قاعدة ماركسية فى مجموعات ، وكان ذلك آنذاك حدثا له أهميته فى الحركات العمالية العالمية • واليوم وبعد ٢٤ عاما حيث يوجد فى معظم بلاد العالم أحزاب شيوعية قوية ، وتحتاج الى الاستقلال الذاتى فى كفاحها ، فقد أدت جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية دورها ، ولو استمرت مدة أكثر لكانت عائقة لاستمرار تطور الأحزاب الشيوعية •

وفى نفس الوقت حذرنا « ميخائيلوف » من الاستهانة بأهمية جبهة

الأحزاب الشيوعية العالمية • أو التقليل من شأنها ، فقد قامت الجبهة بأعمال ضخمة ، وحلها اليوم لا يدل على أن تأسيسها أو نشاطها كله كان خطأ ، بل لأنه تحتم في الفترة الحالية وجود صيغة جديدة للحركات الشيوعية في كل البلاد •

ثم أشار « ميخايلوف » أخيرا الى أن الحل ليس انغاء للفكر العالمي الذي ينبغي أن يظل — كما كان — جزءا لا ينفصل في نضال الأحزاب الشيوعية محل جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية سيفتح للأحزاب الشيوعية امكانيات جديدة ، وآفاقا جديدة للقيام بواجباتهم بنجاح في بلادهم وليقودوا النضال الوطني ضد الفاشية •

وعندما انتهى التصفيق له • قال « ميخايلوف » انه على استعداد انرد على الأسئلة ، وشرح ما استغلق فهمه •
فطلب الكلمة أحد الثبان الأسبانيين :

« ماذا سيكون وضع منظمة الشباب الشيوعي العالمي ؟ هل ستحل أيضا أو ستستمر في نشاطها » ؟

فأجاب « ميخايلوف » بسرعة :

« ليس هناك قرار رسمي بحل منظمة الشباب الشيوعي العالمي ، ولكن يمكن للمرء القول بأن نشاطها سوف يتوقف ، فالأسس التي دعت الى حل جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية ، هي بطبيعة الحال قائمة بالنسبة لمنظمة الشباب الشيوعي العالمي • ولا أحتاج الى أن أذكر الرفيق الأسباني بأن منظمة الشباب الضخمة « الشباب الاشتراكي الأسباني المتحد » ليست شبابا شيوعيا بالمعنى المفهوم من الكلمة ، بل تمثل صيغة جديدة لتنظيم من تنظيمات الشباب •

ولا يجوز طرح احتمال أن تكون في تيار الحرب ضد الفاشية منظمات شباب جديدة في البلاد المحتلة ، أو في بلاد المحور مثل بولندا ، وفرنسا ، وتسيكوسلوفاكيا ، والنمسا ، والمجر ، ورومانيا ، وبلغاريا • • الخ ، وربما أيضا في ايطاليا ، وألمانيا • منظمات على نمط الشباب الاشتراكي الأسباني المتحد ، ولكن من المحتمل أن تكون أوسع ، وتوحد بين الشباب التقدمي المناهض للفاشية • ومن هنا سوف يكون الاحتفاظ بمنظمة الشباب الشيوعي العالمي عائقا في سبيل تحقيق ذلك • وعلى فكرة ، فان تأسيس لجنة الشباب المناهض للفاشية في موسكو ، يعتبر فعلا خطوة في هذا الاتجاه الجديد •

فقال أحد الرفقاء كبار السن :

« أيها الرفيق « ميخايلوف » ماهو مصير مجلة « الشيوعية العالمية » ؟ هل ستتوقف عن الصدور ؟ واذا توقفت فهل ستصدر مجلة عالمية أخرى ؟

أجاب « ميخايلوف » بأن من المسلم به أن مجلة « الشيوعية العالمية » ستتوقف عن الصدور ، ولا يستطيع أحد الآن أن يقول بأن مجلة أخرى جديدة ستصدر أم لا ، وان كان يعتقد أن ذلك محتمل جدا ، وان صدرت مجلة أخرى ، فسيكون لها طابع مختلف •

وكان رأى « ميخايلوف » صائبا ، فقد ظهر بعد بضعة أسابيع مجلة باللغتين : الروسية والانجليزية باسم « الحرب والطبقة العمالية » • وغير اسمها فيما بعد الى « العصر الجديد » واتسع قسم اللغات الأجنبية فيها ، فهي تصدر اليوم بتسع لغات •

كان السؤال الأخير هو :

« هل توجد أى اشارة الى كيفية تنفيذ قرار حل جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية ؟ ومتى ننتظر حل مدرستنا ؟

بدأ تنفيذ قرار حل الجبهة مباشرة بعد اعلانه ، غير أنه يمكن أن نقدر أن اتمام اجراءات التنفيذ — من الناحية الفنية — سيستغرق بضعة أسابيع • وفي نفس الوقت تتخذ اجراءات حل المدرسة وسوف يستغرق ذلك بضعة أسابيع أيضا ، وأنداسة مستمرة حتى ذلك الحين ، حيث يناقش في هذه الفترة موضوع حل الجبهة وفي نهاية ذلك ستعقد الامتحانات ، أما عمل الدارسين في المستقبل فلن يتصل بالجبهة ، وانما ستوكل به قيادة الحزب في بلد الدارس •

* * *

الأيام الاخيرة في المدرسة

استقبل حل جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية من الدارسين بدرجات مختلفة ، ومن المسلم به أنه لم يوجد أحد كان في استطاعته أن يتكلم ولو بطريق غير مباشر ضد قرار الحل • ومن ناحية أخرى لم يظهر رد الفعل المتباين بين الدارسين الشباب وكبار السن في الأيام الأولى بعد الحل •

بدت علامات الحزن على وجوه الرفقاء كبار السن — أثناء محاضرة « ميخايلوف » — الذين كانوا أعضاء في الحزب أو قياديين سنين عديدة بل منذ عشرات السنين ، فقد كانت الجبهة حتى قبل بضعة أيام أكبر تنظيم ، رأته عيونهم حتى الآن ، ربما يتذكرون في هذه اللحظة كلمة « ديمتروف » في قضية حريق مبنى البرلمان الألماني : « ان القانون الأعلى عند كل شيوعى ، هو برنامج الشيوعية العالمية » ، وأن « أعلى محكمة هي هيئة الرقابة في جبهة الشيوعية العالمية » ، ويفكرون الآن في الكلمة الختامية حيث شرح « ديمتروف » أن عجلة التاريخ التي « تحركها الطبقة العاملة تحت زعامة الشيوعية العالمية » لا يمكن أن تتوقف .

« لينين » :

« نقسم لك أيها الرفيق « لينين » ، أننا لن نبخل بشيء من حياتنا في سبيل تثبيت وتوسيع دائرة اتحاد العمال في جميع أنحاء العالم ، جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية ! »

ثم تمحى جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية من الوجود بين يوم وليلة .

لم يكن وقع هذه الأحداث علينا — نحن الشباب ، وكنا أكثر من نصف المدارسين — صعبا ، كما كان بالنسبة للرفقاء كبار السن . فقد نشأنا في عصر لم تعد فيه الشيوعية العالمية تحتل المركز المرموق ، الذي كان لها في العشرينات . وبدا لنا أن حل الجبهة هو امتداد منطقي للنظريات التي درسناها في مدرسة الجبهة . وأكثر من هذا ! فقد كان يوجد من بيننا نحن الشباب — وأنا منهم — من يرى ، أن حل الجبهة — من بعض نواحيه — خطوة ايجابية .

عاودت مرارا قراءة فقرة من قرار الحل تحتوى على الاعتراف بشأن للأحزاب في البلاد الأخرى الحق في أن تسلك الآن طريقا منفردا : « التباين الواسع في حركة التطور التاريخي لكل بلد في العالم على حدة ، والطبائع المختلفة ، حتى التعارض في نظم مجتمعاتهم ، والفرق في مستوى ودرجة التطور السياسي والاجتماعي ، وأخيرا الفرق في درجة الوعي والتنظيم العمالي ، كل ذلك يتطلب جلولا مختلفة للمشاكل التي تواجه الطبقة العمالية في كل بلد على حدة » . (م ٢٠ — نظام الحكم الشيوعى)

قرأنا نحن الشباب بارتياح أن النصر على الفاتسية « يمكن أن يتحقق في أحسن ظروفه ، وأكثرها فائدة ، عن طريق طلائع الحركة العمالية في كل بلد على حدة داخل اطار دولتها ، وأن للحزب في كل بلد على حدة — كما صيغ ذلك في المؤتمر العالمي السابع — أن يتصرف في اتخاذ القرار في كل مسألة من واقع الأوضاع الثابتة ، والعلاقات الخاصة ، التي تتحكم في كل بلد بذاته » •

بعثت هذه الصيغة الأمل عندي في أن الحزب الشيوعي الألماني لن يرتبط بالاتحاد السوفييتي بعد الانتصار على الفاتسية ، وأنه يستطيع في كثير من المسائل أن ينهج طريقه الخاص •

أعتقد أن الرفقاء الشبان في المجموعات الأخرى فكروا نفس هذا التفكير • لقد كانوا حقا — بصورة مبدئية عامة — متفقين مع النظام في الاتحاد السوفييتي ، ولكن مما لا شك فيه أنهم كانوا يرغبون في أن يتصرفوا في أوطانهم في بعض الحالات تصرفا مغايرا وبطريقة أحسن •

كما كنت مقتنعا جدا بعدالة القرار — لم أكن أتصور آنذاك ، أن انسلطة في موسكو سوف تفرض سلطانها بعد سنوات قليلة على الأحزاب الشيوعية بطريقة أشد ، وبأسلوب مباشر — كذلك كنت أشك جدا في أن الأسباب المعلنة ، كانت هي فقط — ولا شيء غيرها — التي أدت الى حل الجبهة •

كانت مدرسة الجبهة على بعد ٦٠ كيلومترا فقط من « أوبا » ، وكانت ادارة المدرسة على اتصال مستمر يوميا مع ادارة الجبهة في « أوبا » ؛ لم يكن من الصعب ادراك أن هذا القرار اتخذ بين يوم ولييلة ، والا لظهرت اتجاهات غير مباشرة في المدرسة لتهيئة الجو لتقبل مثل هذا القرار • لم يحدث هذا فلم توجد أي تلميحات نحو هذا الاتجاه ، بل كان العكس ، إذ في اليوم الذي أذيع فيه القرار في الراديو ، كان عندنا محاضرة في المدرسة عن تاريخ الشيوعية العالمية • وقبل هذا بيومين ، تحدث أحد المحاضرين بالتفصيل عن الدور الكبير الذي تقوم به الجبهة في النضال ضد « هتلر » •

اذن ، كان مؤكدا أن حل الجبهة كان قرارا فجائبا ، ومن المحتمل أن مصدره « ستالين » أملته عليه ظروف سياسة الاتحاد السوفييتي الخارجية ، ولا يتعلق بالتطور التاريخي الا بخيط رفيع •

ذهبت للتجول بعد يومين مع أحد الزملاء ، وكان أحد الأشخاص
الناقل الذين شعرت أنهم ليسوا متعصبين للحزب •
« في الحقيقة أن حل الجبهة حدث مهم ، أليس كذلك ؟ قالها وغمز
لى بعينه •

« نعم ! وخاصة أن القرار جاء مفاجئاً ومباغتاً » •
أردت بهذه الاجابة ، ارساء قاعدة للاستمرار في الحديث ، ليس
حديث الولاء الكامل للاتجاهات الرسمية •
« هل تعلم يا « ليندين » ! يستطيع المرء أن يتحدث كما يجب ،
ولكنى مقتنع أن هذا القرار اذعان لانجلترا وأمريكا ، وربما كان هذا
القرار استجابة لرغبة هاتين البلدين » •

من الواضح أنهم خافوا من امكانية وجود مثل هذا الفهم في أذهان
كثير من الدارسين في هذه الدورة الدراسية • وربما كان هذا هو
السبب في أنهم تركوا الدارسين في حلقات دراسية متعددة ، يعيدون
ويكررون مناقشة موضوع « حل جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية »
لمدة أسابيع عديدة •

فقد ناقشوا بالتفصيل كل ما جاء في قرار الحل ، وما ذكره
« ميخايلوف » في خطبته من حجج وبراهين ، بطريقة لا يستطيع المرء
في بلد غير الاتحاد السوفييتي أن يتخيلها • فقد شرحت كل جملة
منفردة ، وفسرت تفسيراً شاملاً ، كذلك شرحت الحوادث التي وقعت
في الاعوام الأخيرة. وعللوا : لماذا أصبحت العالمية الأولى قبل سبعين
عام — رغم الدور الكبير الذي قامت به — بعد فترة عائقاً في سبيل
التطور !

ليس من المؤلف خارج العالم السوفييتي — حسب معرفتي —
بحث الحوادث السياسية المعاصرة من الوجهة الفلسفية ، ولهذا ينبغي
أن أشير هنا الى أننا درسنا في مدرسة الجبهة قرار الحل — وهو حدث
سياسي معاصر — على الأساس الفلسفي للمادية الجدلية •

أكد « ميخايلوف » في محاضراته على أن النموذج الحالي لجبهة
الأحزاب الشيوعية العالمية أصبح لا يناسب حجم نشاط الأحزاب
الشيوعية المعاصر في البلاد المختلفة ، وترتب على هذا وجود تباين
بين النموذج والحجم ، وكان هذا داعياً الى بحث العلاقة الجدلية بين
النموذج والحجم •

فالمادية الجدلية — بناء على ذلك — تكون وحدة جدلية بين النموذج والحجم ، حيث يقوم الحجم بالدور الأساسى ، وتتفوق عليه عناصر معينة ، أما النموذج فهو بلاشك متعلق بالحجم ، غير أنه ليس سلبيا ، بل يمكن أن يؤثر على الحجم •

وبناء عليه ، فيجب أن يراعى كلاهما — الحجم والنموذج — فى قضية التطور الى درجة معينة من درجات التطور ، يمكن للحجم فيها أن يواصل تطوره فى اطار النموذج المرسوم دون أن يعاق تطوره ، ولكن اذا وصل الى نقطة يكون فيها النموذج القديم عائقا للاستمرار التطور ، ففى هذه الحالة يظهر التباين بين الاثنين ، ويلج فى ايجاد حل يرفع هذا التباين ، ويتحدد فى النهاية بضرورة طرح النموذج القديم جانبا ، لافساح المجال لاستمرار التطور •

درسنا هذا بالتفصيل على أساس المبادئ الخمسة عشر للجدلية التى أعلنها « لينين » فى بحوثه الفلسفية حيث عدد فيها ١٦ مبدأ للجدلية ، وشرح العلاقة بين النموذج والحجم فى ١٥ منها •

« صراع الحجم مع النموذج والعكس ، طرح النموذج ، اعادة تكوين الحجم » •

ولأننا نعلم أننا — كلما أمكن ذلك — لن نقتصر على كلام « لينين » فقط ، فقد استشهدنا أيضا بما قاله « ستالين » :

« ان النموذج الحالى لا يتطابق تمام المطابقة مع الحجم الحالى : فالأول يبقى دائما خلف الثانى ، فالحجم الجديد يكون دائما داخل النموذج القائم بنسبة ثابتة ، وهكذا يستمر الصراع بين النموذج القديم والحجم الجديد » •

درسنا حتى الآن العلاقة الجدلية بين النموذج والحجم ، وخاصة فى مثال التباين بين قوى الانتاج ، ومركز العلاقات الانتاجية ، وكيف يكون نموذج العلاقات الانتاجية معارضا لنمو قوى الانتاج المادية فى مراحل معينة من التاريخ فيتحول الى أغلال ويعوق استمرار نمو قوى الانتاج •

ثم طبق المبدأ الجدلى على قرار حل جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية ، فهنا أيضا — هكذا قيل لنا — تدور المسألة حول التعارض بين نموذج بال ، وحجم جديد ، ووجب ازالة التعارض بنفس النموذج البالى ، وهو فى هذه الحالة صيغة تنظيم جبهة الأحزاب الشيوعية

العالمية غير أنى لم أقتنع بأن حل الجبهة يمكن أن يضرب كمثال للتغلب على التعارض بين النموذج والحجم •

كان ذلك شكا فقط آنذاك ، ثم عرفت بعد عدة أعوام أن الطابع الجوهري « الستالينية » ، هو استعمال المادية الجدلية ، لخدمتها ، لأن « الستالينية » لا تطبق القوانين الجدلية لشرح القضايا داخل المجتمع ، فتنخذ القرار اللازم لهذا التطبيق ، بل استعملتها لتبرير القرارات السياسية ، أو الأحكام بعد صدورها •

اعتقدنا أننا انتبهنا من مناقشة مشكلة حل الجبهة من جميع جوانبها ، عندما نشرت « برافدا » فى ٣٠ مايو حديثا صحفيا مع « ستالين » عن الفهم السوفييتى لحل الجبهة ، وعن التأثير الذى سيحدثه هذا القرار مستقبلا على العلاقات الدولية •

أجاب « ستالين » بما يلى :

« قرار حل جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية قرار صحيح ، وقد جاء فى حينه ، لأنه يسهل تنظيم التقدم الجماعى لكل الشعوب الحرة ضد العدو المشترك « الهتلرية » •

قرار حل جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية قرار صحيح لأنه :

(أ) يكشف القناع عن أكذوبة أتباع « هتلر » ، التى يزعمون فيها أن موسكو تحاول التدخل فى الشؤون الداخلية للبلاد الأخرى ، و « بلشفتها » ، فقد ظهر كذبهم الآن •

(ب) يزيح اللثام عن افتراء أعداء الشيوعية داخل الحركات العمالية ، اذ يزعمون أن الأحزاب الشيوعية فى البلاد المختلفة لا تقوم بنشاطها بوحى من المحافظة على مصالح شعوبها ، بل تنفذ أوامر صادرة إليها من الخارج ، و الآن بطلت هذه الفرية •

(ج) ييسر على الوطنيين فى بلاد العالم الحر الاتحاد مع قوى التقدم فى كل بلد — متحررين من التبعية الحزبية والعصبية الدينية — على قاعدة التحرر الوطنى المشتركة ، لتوسيع دائرة النضال ضد الفاشية •

(د) ييسر جهود الوطنيين فى كل البلاد داخل اتحاد الشعوب الحرة للعمل معا فى جبهة النضال ضد خطر سيطرة الهتلرية على العالم ، ويمهد — القرار — بذلك الطريق لتنظيم العمل المشترك لكل الشعوب على أسس المساواة •

أعتقد أن كل هذه الأخطاء ستؤدي الى استمرار توطيد جبهة اتحاد الحلفاء والى وحدة دولية أخرى في مجال النضال ضد جبروت « هتلر » حتى النصر •

وأعتقد أن قرار حل جبهة الأجراب الشيوعية العالمية جاء في وقته المناسب تماما ، لأن من الضروري ، الآن بالذات — حيث الحيوانات الفاشية المتوحشة تجند آخر قواها — تنظيم كل الشعوب الحرة للزحف الجماعي ، حتى يقضى قضاء تاما على هذه الحيوانات المتوحشة ، وتحرر الشعوب من الاضطهاد الفاشي » ••

٢٨ مايو سنة ١٩٤٣ م • ج • ستالين

على الرغم من أن هذه التصريحات لم تأت بجديد ، فقد نوقشت في سلسلة من الحلقات الدراسية ، ولم تدر المناقشة في هذه المرة حول قرار رئاسة اللجنة العليا ، بل حول تصريحات « ستالين » •
مضى الآن ثلاثة أسابيع على حل جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية ، ونحن نناقش هذا الموضوع ، ونعيد ونكرر حتى قتلناه بحثا • وأخيرا جاء اليوم الذي كنا ننتظره •

فقد أعلن في اجتماع عام لكل الدارسين في مدرسة الجبهة ما يلي :
« انتهت الدراسة الآن ، وعلى كل الرفقاء في كل المجموعات أن يستعدوا للامتحان الذي سيعقد في وقت قريب » •

ولأول مرة في مدرسة الجبهة بكون « وقتنا حرا » نتصرف فيه كيف نشاء ، وان كنا قد تلقينا قائمة موضوعات الامتحان ، ويجب علينا مذاكرتها ، الا أننا كنا أحرار في تنظيم أوقات التحصيل ، كل حسبما يريد ، لقد تعودت في المدرسة على حياة ، ليس فيها دقيقة فراغ ، ولهذا بدت أسابيع الاستعداد للامتحان — وهى في نفس الوقت الأسابيع الأخيرة في المدرسة — قمة الحرية ، فقد كان لنا الحق في الدراسة في الهواء الطلق ، حيث كنا في أيام يونيو ادفئة الجميلة •

وأخيرا حان موعد الامتحان في منتصف يونيو سنة ١٩٤٣ • وعقد الامتحان يوميا في مجموعات مختلفة ، وكان دور مجموعتنا الألمانية في المقدمة •

جلس على المنضدة في حجرة الحلقات الدراسية ، المحاضرون ومشرفو الحلقات الدراسية في المجموعة الألمانية : « باول فانديل » (كلاسنير) و « برنارد كونيون » و « لينى برج » (رينج) ومعهم

« ميخايلوف » كذلك محاضر أو محاضران من المجموعتين الأخيرين اللتين تتحدثان اللغة الألمانية .

نودى على الدارسين واحدا بعد الآخر ، وكان على كل دارس أن يتقدم الى المنضدة ويسحب ورقة من أوراق كتبت عليها أسئلة الامتحان ، وفى كل ورقة أربعة أو خمسة أسئلة . أحدها من محيط الموضوعات التي ناقشناها فى المدرسة .

١ - الفلسفة (المادية التاريخية الجدلية) الاقتصاد السياسى أو أسئلة أخرى عن « الماركسية - اللينينية » .

٢ - تاريخ الحزب الشيوعى السوفييتى ، وبالتالي تاريخ جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية .

٣ - تاريخ الحركة العمالية الألمانية ، وبالتالي أسئلة واقعية عن النضال المعاصر ضد الفاشية .

٤ - سياسة عامة (فى الدرجة الأولى : الفاشية والوضع فى ألمانيا الهتلرية) أسئلة سياسية جوهرية عن الكفاح ضد « هتلر » (مثلا : شرح الأيديولوجية النازية ، والاستراتيجية والتكتيك ، والجبهة المتحدة ، والجبهة الشعبية) .

لم يكن الامتحان بالغ الصعوبة ، ولكن ربما كان لحزب الجبهة تأثير عليه ، غير أنه يتضح منه أيضا ، كم مادة درسناها فى أحد عشر شهرا وهى فترة قصيرة نسبيا .

سار الامتحان فى مجموعتنا دون حدوث أى مشاكل عرضية كبيرة . لم يحدث شيئا سوى أن « أوتو » ارتبك فى تحديد الفرق بين الجبهة المتحدة والجبهة الشعبية ، وبين الحكومة العمالية ، وحكومة العمال والفلاحين . ولكن لم يغضب « ميخايلوف » من خلطه بين المؤسسات . انتهى الامتحان بعد ما يقرب من ٨ ساعات ، ولأول مرة بعد عام تقريبا ، لا يكون عندنا شئ نعمله ، وبدأ الرفقاء قضاء وقت فراغ كبير . والآن ! ينتظر كل الدارسين شيئا هو :

الإشارة بحل مدرسة الجبهة نهائيا ، والاستعداد للعمل السياسى التالى .



الاستدعاء الخاص الى «أوفا»

حدث شيء — في هذه الأيام ، التي هي أيام اجازة غير عادية —
ثم أكن أتوقع امكانية حدوثه قبل بضعة أسابيع :

تقوم المدرسة برحلة جماعية غدا . سوف نستمتع بالشمس ،
والسباحة في نهر (Bjelaja)
كانت هذه أول مرة — باستثناء ثلاثة أماكن عمل — يسمح لنا فيها
بمغادرة دائرة المدرسة .

استلقينا على الشاطئ ، وسبحنا ، وأخذنا حمامات شمس طمعا
في أن تكتسب بشرتنا اللون الأسمر : وكنا سعداء بقضاء يوم رائع .
ظل يوم (Bjelaja) عالقا بذاكرتي لأسباب أخرى ، فقد كنت
مستلقيا مع أحد الأصدقاء في ركن يبعد قليلا عن المجموعة ، فرأينا فجأة
احدى الفلاحات متجهة نحونا ، وقبل أن نفكر فيما ينبغي عمله ، لو
بدأت بمخاطبتنا كانت قد وصلت عندنا .

— « أنتم طلبة في المدرسة . أليس كذلك ؟ »
فتمتمنا بكلمات غير مفهومة :

« نعم ! طبعاً . ليس مسموحاً لكم بأن تقولوا شيئاً ، وأنا أعرف
بالضبط أنكم من هذه المدرسة الأجنبية . فالسلطة السوفياتية غبية ،
اذ تعطيكم أيها الأجانب كل شيء ، ونحن نموت جوعاً . على كل فلن
بستفيد هؤلاء الكبار من هذا شيئاً ، اذ عندما تتخرجون من هذه المدرسة
نن تنفعوهم » .

نظر كلانا اليها ، ولكننا لم نتكلم كلمة واحدة . كانت الفلاحة رابطة
الجأش ، ولكنها استمرت في طريقها بخطوات سريعة . أيقظت كلماتها
الشجاعة وعيى فأدركت أنى عشت أحد عشر شهراً في عالم آخر ،
مفصولاً تماماً عن حياة الناس « العاديين » .

واليوم ! يبدو لي بوضوح أن العزلة التامة لطبقة القياديين في
الحزب هي عنصر أساسى في النظام « الستالينى » . هذه العزلة تقسر
بعض الظواهر وأسلوب التفكير والتصرف لدى القياديين « الستالينيين » .
وبعد ذلك بأيام قليلة كنت مستلقيا في حرم المدرسة على الحشيش ،
أقرأ كتاباً ، واذا بى أسمع شخصاً ينادى على :

— « ليندين ••• ليندين » •

— « ماذا حدث » ؟

— « أنت مطلوب عند المدير حالا » •

اتجهت الى حجرة المدير وأنا مضطرب ، هل ستعاد عملية « النقد والنقد الذاتى » ؟ هل أخبر زميلى عن الحديث القصير الذى تبادلناه عن حل جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية ؟ ولكنه تجاوز فى حديثه عن هذا الموضوع الحد الذى وقفت عنده •

عندما دخلت الى « ميخايوف » كان فى الحجرة سبعة رفقاء ، وكانوا من مجموعات مختلفة ، قال « ميخايوف » : « يجب علينا انتظار اثنين آخرين » •

ثم وصل الاثنان بعد بضعة دقائق ، لم يوح الجو بأن هناك عملية « النقد والنقد الذاتى » •

جلس بجانب « ميخايوف » قيادى ، لم أره فى المدرسة قط • بدأ « ميخايوف » دون لف ودوران :

« أيها الرفقاء ! لقد استدعيناكم الى هنا ، لأنه قد وقع عليكم الاختيار لعمل خاص • فقد أصبح من الضرورى — نتيجة لحل الجبهة — تنظيم قلم محفوظاتها ، لأنه يوجد فى حالة غير طبيعية بعد نقله من موسكو • لقد اخترناكم لهذا العمل لأننا نرى أن عندكم القدرة السياسية للاقيام بتنظيم « الأرشيف » بالاضافة الى أن كل واحد منكم يتقن اللغات الأجنبية التى هى ضرورية لهذا العمل •

لست بحاجة الى أن أثير الى عدم جواز التحدث بهذا الخبر مع أحد • وسوف تسافرون سويا مع هذا الرفيق الى « أوف » وأظن أن السفر سيكون غدا » •

وفعلا ! وصلت فى صباح ليوم التالى عربة نقل ، أخذتنا نحن العشرة الدارسين والقيادى الذى جاء من « أوف » واثنين للالة الكاتبة • وظل الباقون فى المدرسة • ولم أعلم فى هذه اللحظة عما اذا كنت سأرى المدرسة مرة ثانية ! وماذا يحدث لنا بعد الانتهاء من هذه المهمة !

عندما انطلقت السيارة ، ألقىت نظرة على المدرسة التى تعلمت فيها أشياء مهمة ، ولكن عشت فيها أيضا أوقاتا عصيبة أثناء عملية « النقد والنقد الذاتى » • لقد غيرونى هناك فى مدى أحد عشر شهرا

من طالب وعضو منظمة شباب مرح اجتماعى الى قيادى حزبى ، يزن الكلمات ويقابلها على كل الوجوه قبل النطق بها •

توارت المدرسة عن مدى البصر بعد دقائق معدودات • نحن مقبلون الآن على القيام بعمل ، أنتظره بأعصاب مشدودة ، فقد كان أول تكليف لى من الحزب •

توقفنا على الطريق بعد ساعة تقريبا ، فلم نستطع مواصلة السفر ، لأنه كان هناك حاجز على الطريق ، ووقف خلفه خمسون شخصا تقريبا ، ينظرون الى سيارتنا نظرات يائسة • سأل مرافقنا بلهجة حادة :
— « ماذا حدث ؟ »

فاتجه شاب نحو سيارتنا :

« بناء على أمر رسمى صادر من جمهورية « بشكير » يجب على كل سيارة الوقوف هنا ، لتأخذ بعض المستعدين للخدمة العسكرية لتوصيلهم الى أماكن استعدادهم ، اذ يجب استغلال كل مكان فى كل سيارة ، وبناء عليه فنطلب منكم أن تأخذوا بعضا منهم معكم فى سيارتكم اللورى » •

لم يجب مرافقنا ، بل أبرز له الأوراق الرسمية التى معه • وفى غضون ذلك كان المسافرون قد أحاطونا ، ملوحين ببطاقاتهم الشخصية ، بالضبط كما فعلت قبل عام ، عندما كنت مسافرا الى « كازاخستان » • قرأ الرجل الذى كان يرتدى سترة من الجاد الأوراق التى أعطاها له مرافقنا ، وبعد أن اطلع على كل ما فيها قال شبه معتر :
— « حسنا ! طبعا هذا شئ آخر » •

ثم صاح بلهجة حادة قاطعة :

« ارجعوا الى الوراء ! أفسحوا الطريق لهذه السيارة ! » !

فرفع الحاجز ، ومررنا ، ثم ألقينا نظرة الى الوراء على المنتظرين ، وخيبة الأمل ظاهرة على وجوههم •

تكررت هذه العملية فى الطريق الى « أوبا » أربع أو خمس مرات • وفى كل مرة يقدم المرافق أوراقه ، فيفتح لنا الطريق بسرعة • انتابنى شعور غريب لأنى تذكرت ما حدث لى بالذات قبل عام واحد •

لم نتجه فى « أوبا » الى مبنى جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية ، بل وقفت العربة أمام فندق (Baschkirija) ذلك الفندق الذى أقام فيه زعماء الجبهة ، ولكنهم كانوا قد غادروا « أوبا » •

كان فندق (Baschkirija) أجمل فندق في المدينة — جديد ، وكان بالنسبة لوضع « بشكير » مؤثنا بأثاث خرافي — •
قادنا مرافقنا الى داخل الفندق ، وكانت الحجرات محجوزة لنا •
وبكل هدوء ، هكذا كما لو كان هو نفسه مدير الفندق ، فتح لنا باب
المطعم ودعانا الى الدخول ثم قال : « سنتناولون هنا طعامكم » وفي
الحال دخلت فتاة ترتدى ملابس نظيفة ، وبدأت في اعداد المائدة •
ومما لا شك فيه أن طعامنا في المدرسة كان ممتازا ، ولكن ما قدم
لنا الآن يفوق كل ما كنا نتخيله •

وبعد الطعام قدمت السجائر الفاخرة ، فجلسنا ندخن ، ونستمع
بهذه اللحظات الجميلة • ثم قال المرافق :

« والآن ! نستطيع أن نتحدث في العمل ، اذا لم يكن عند الرفقاء
مانع ، سوف تنقلكم العربة كل يوم بعد الافطار الى « أرشيف » جبهة
الأحزاب الشيوعية العالمية ، وهو في مبنى احدى المدارس في الطابق
ارابع ومما لا شك فيه أن عليه حراسة مشددة ، فلا نستطيع الدخول أو
الخروج الا مع بعض كمجموعة ولن يسمح لكم بالدخول — حتى ولو
كنتم مجموعة — الا بهذه البطاقة الشخصية » •
ثم أعطى كل واحد منا بطاقة شخصية ، كانت قد أعدت له بالصورة
من قبل •

استمر مرافقنا يتحدث بلهجة ودية جدا :

« أعتقد أن من الأفضل أن نذهب الآن الى « الأرشيف » ، اذ
استطيع أن أشرح لكم العمل هناك على نحو أفضل ، وسوف تبدأون
العمل غدا صباحا • هل يوجد أى سؤال ؟ »

وطبيعي أنه كان هناك أشياء كثيرة مهمة ، ولكن كان من الطبيعي
أيضا ، أنه لم يسأل أحد فيها •

ثم قال : « اذن ، فكل شيء الآن على ما يرام » •

وقفت ثلاث عربات « صالون » على استعداد ، ركبنا فيها ،
واخترقنا المدينة حتى وقفنا أمام مبنى مدرسة جديدة ، مكون من أربعة
طوابق • وعندما وصلنا الى الطابق الرابع ، اتجه الينا الحارس فأبرزنا
له البطاقات الشخصية ، ثم دخلنا الى قاعة ضخمة ، حيث رأينا عددا
كثيرا من الزكائب •

كان طول الزكيبية مترا ونصف تقريبا ، وعرضها أكثر من متر •

وبدا من شكلها أنها مملوءة « بدوسيهات » ومحافظ أوراق • وبعد لحظة تبينا أن هناك حجرتين أخريين مملوءتين بزكائب مماثلة •

قادنا المرافق الى أحد الأركان ثم قال :

« عندما اضطرت الجبهة الى الهجرة من موسكو ؛ لم يكن هناك وقت كاف لتنظيم « الأرشيف » ، فعبثت « دوسيهات » ومحافظ أوراق الأحزاب الشيوعية في البلاد المختلفة في الزكائب بدون ترتيب • وهى مرقمة ترقيميا احتياطيا على نحو يمكننا من معرفة ، أين توجد وثائق كل حزب على حدة ، لأنه ليس معروفا بالضبط ، ماذا فى كل زكيبية على حدة ؟ والمطلوب منكم فتح الزكائب وبحث محتوياتها ، ثم ترقيم المحافظ طبقا لمحتوياتها ، وعمل فهرست لمحتويات كل زكيبية ، ثم كتابته على الآلة الكاتبة • وبهذه الطريقة يمكن معرفة محتويات « الأرشيف » فاذا احتجنا الى وثيقة ما فيما بعد ، فنستطيع بواسطة الفهرست الذى أعددتموه ، معرفة مكان المطلوب » •

نظرت بارتباب الى الزكائب المرصوفة فى الصالة الضخمة ، فأيقنت أن أمامنا عمل ضخم جدا •

« لقد فكرنا فى عمل « أرشيف » عام مفهرس حسب البلاد ، فكل واحد منكم سيأخذ مستندات الحزب الذى سيوكل به • والتقسيم الذى أقترحه هو كما يلى :

أخرج المرافق ورقة من جيبه ، ثم قرأ أسماء الحركية ، وكذلك البلاد وأرقام الزكائب التى سيقوم بترتيب وثائقها :

« الرفيق « ليندين » ! الحزب الشيوعى الأمريكى ، ونصف وثائق الحزب الشيوعى البريطانى » •

سرت بهذا العمل ، لأن من المؤكد أننى سأستفيد من قراءة وثائق الأحزاب الشيوعية • هل فكر المرافق فى هذا ؟

« أحب أن أشير هنا بوضوح الى أنه لا يجوز لأحد يعمل فى هذا العمل ، اذاعة أى شئ عنه ، كذلك أحب أن ألفت انتباهكم الى أن كل ورقة — حتى ولو كانت لا أهمية لها اطلاقا — يجب أن تعاد الى الزكيبية التى أخرجت منها • وغنى عن البيان أنه لا يجوز أيضا اخراج أى ورقة — حتى ولو كانت قصاصة — من هذه الصالة • •

وأخيرا أحب أن أشير لكم الى أن العمل ليس قراءة ما فى

« الأرشيف » من وثائق ، فليس لأحد منكم الحق في قراءة أى شىء من وثائق هذا الأرشيف » .

لقد تربيت على النظام القاسى ، الذى يلزمنى بتنفيذ التعليمات حرفيا ، ولكن كيف يستطيع المرء أن يرتب وثائق ويعمل لها فهارس ، دون أن يقرأها ! ولكنى منعت نفسى من التلفظ بأى شىء .

* * *

عملنا في أرشيف الجبهة

ذهبنا بنشاط فى اليوم التالى الى عملنا فى « أرشيف » الجبهة ، فبدأ كل واحد منا يجمع زكائب « حزبه » . وبعد القاء نظرة سريعة على محتويات الزكيبية الأولى ، تبين لى أن العمل أصعب مما كنت أتصوره ، فكل شىء فيها مختلط ومنشأبك .

هل كان الوضع عند الآخرين أيضا بهذه الصورة ؟ ، وعلى الرغم من التعليمات المشددة فقد أطلعنا بعضنا على ما فى الحقائق ، واتفق الجميع على أن زكائبى كانت أسوأ الجميع ، فقد اعترفوا بأن سوء التنظيم والفوضى فى وثائق الحزب الشيوعى الأمريكى يحتل المركز الأول .

لم يوجد فى زكائب رفقائى الأمريكين أعداد من ربط الوثائق التى ألقى بها دون أن تثبت فى « دوسيهات » فحسب ، بل وجد أيضا قصاصات من الاعلانات السينمائية ، وأعداد من النيويورك تايمز ، وأقلام رصاص مكسرة ، و « كراكيب » أخرى ليس لها صلة بأرشيف اطلاقا .

علق أحد الرفقاء على ذلك ضاحكا :

« من المؤكد أن الرفقاء الأمريكين لم يكن عندهم وقت اطلاقا ، عندما أرسلوا « أرشيفهم » الى موسكو ! »

لم تكن هذه الفوضى عند الحزب البريطانى ، فقد كانت جميع الوثائق — على الأقل — مجموعة فى محافظ أوراق . فهى وان لم يكتب شىء على المحافظ يبين ما فيها من أوراق الا أنها كانت تبدو منظمة نسبيا . غير أنه لا وجه للمقارنة بينها وبين « أرشيف » وثائق الحزب الشيوعى الألمانى ، فلا يمكن أن يتصور هذا عند البريطانيين اطلاقا ، إذ لم ينظم الحزب الألمانى وثائقه فى محافظ فقط ، بل كتبوا ورقة على كل مجفظة مكتوبا عليها محتوياتها .

اندهشنا جدا عندما رأينا محافظ أوراق عند الحزب الشيوعي الألماني فيها منشورات عام ١٩٣٢ م ، وقد نظم كل منشور في المحفظة طبقا لأحرف هجاء قيادة الحى الذى طبعته ، وعلى كل منشور ورقة كتب عليها دواقع إصداره ، ومتى صدر ؟
قال أحدنا للرفيق الذى كان مكلفا بتنظيم وثائق الحزب الشيوعي الألماني :

« أنت محظوظ ، فليس عندك ما تعمله • ولكنه رد عليه بأنه يعترف بأن حقائبه منظمة جدا ، ولكن مجموعها يبلغ ثلاثة أضعاف وثائق الأحزاب الأخرى • فلم يرسل أى حزب الى موسكو وثائق بهذا العدد ، مثلما أرسل الحزب الشيوعي الألماني •

عدت الى زكائب رفقاءنا الأمريكيين ، وحاولت بكل جهدى تنظيم محتوياتها المتشابكة ، المختلطة وثنائرها مع مقصات مكسرة ، وجرائد قديمة ، ومساحات « أستيكية لمحو الكتابة » وأقلام حبر • ولكن كان لهذه الفوضى جانب ايجابى ، فقد كانت فرصة — على أقل تقدير — للقيام بعمل مثل هذا بمفردى • كان على أن أخرج جميع الوثائق وأرتبها حسب السنة والموضوعات الرئيسية ، ثم أعيدتها ثانية الى محافظ الأوراق •

كان مرافقنا يلاحظنا ، وعندما مر عندى ، ورأى وضعى السئ الذى وضعنى فيه الرفقاء الأمريكيين ، هز رأسه متأسفا وقال :

« لن تنته من هذا العمل أبدا ، أرى أنه ينبغي علينا أن نقتصر فى هذه الحالة على عمل فهرست عام فقط ، والشئ المهم أن تعاد الوثائق الى المحافظ بسرعة مع شئ قليل من التنظيم ، فاذا لم يتضح لك الموضوع بسرعة فتستطيع أن تكتب « منوعات » على ظهر المحفظة ، لأننا لابد أن ننتهى من هذا العمل فى غضون أيام قليلة » •

اتبعت نصيحته ، فانتهيت فى غضون ساعات قليلة من ترتيب بعض الوثائق •

اشتغلت بنشاط عدة ساعات ، فوضعت وثائق الحزب فى المحافظ مرتبة حسب عناوينها كلما أمكن ذلك ، ثم كتبت على المحافظ عنوان ما فيها وأعدتها الى الزكيبية • وبهذه الطريقة نفذت الأوامر المشددة بعدم قراءة ما فى الوثائق •

وفجأة اكتشفت بين الجرائد الأمريكية المختلفة جريدة تسمى

« المناضل » ، ظننتها جريدة شعبية ، فهممت بوضعها في الزكبية دون اهتمام ، ولكنى تنبعت فجأة : فقد رأيت على الصفحة الأولى رسم المنجل والمطرقة ، وتحتة : « شعار البوليتاريا يوحدكم في كل البلاد » •

هل هي جريدة حزبية ؟ ولكنهم لم يذكروا لنا شيئا عن هذه الجريدة عندما ناقشنا موضوع الحزب الأمريكى في دراسة مادة : تاريخ جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية ؟

ورغم أنى كنت أعلم أنى محتاج الى كل دقيقة في هذه اللحظة ، فقد تصفحتها بسرعة — كان فيها شيء عن النضال الطبقي ، وعن التضامن العالمى ، وعن تحرير الزوج •

ثم تأكدت أنها جريدة حزبية عندما وجدت على الصفحة الثالثة عنوانا بالخط العريض :

استسلام « راكوفسكى »

بقلم « ليون تروتسكى »

لَمْ أصدق عينى ! مقال لـ « تروتسكى » ! فهذه بالتأكيد جريدة « تروتسكية » • لو انفجرت عبوة ديناميت كبيرة بجانبى ، ما اهتزت لها أكثر مما اهتزت أثناء العثور على هذه الجريدة •

التفت بسرعة يمينا وشمالا ، فلم أجد أحدا بالقرب منى ، فقرأت مقال « تروتسكى » بسرعة • لا يستطيع أحد أن يتصور ، كم كنت مضطربا وأنا أقرأه !

« راكوفسكى » ؟ قابلنى هذا الاسم مصادفة في مؤلفات « لينين » وعرفت أنه صدر حكم ضده في أوائل عام ١٩٣٨ م •

وطبيعى أنى كنت أشك منذ زمن طويل ، في أن ضحايا التطهير في الفترة من ١٩٣٦ الى ١٩٣٨ م كانوا مناهضين للثورة ، ولكن لم يكن هذا الشك سوى افتراض غريزى ، فما كنت أستطيع التأكد من هذا عن طريق المعلومات • والآن ! قرأت عن مصير هؤلاء الثوريين ، عن نضالهم السياسى في معارضة المجموعة « الستالينية » (كان هذا الرسم وحده نوعا جديدا بالنسبة لى) • ولكن لم أفهم بعد ، لماذا يتحدث « تروتسكى » عن استسلام !

ثم قرأت أن « راكوفسكى » اعترف بخطئه ورجع الى الحزب الشيوعى السوفييتى • وطبقا لما فهمته من المقال — حسب مقدرتى فى معرفة اللغة الانجليزية — فقد صور ذلك على أنه « نقد ذاتى » واعتراف بصحة الحزب • كان اكتشافا أن أجد وصف هذا الحدث بالاستسلام • ألم يكن « تروتسكى » على حق فى هذه الحالة ؟ ألم يكن هذا حقيقة استسلام ؟

لقد فقدت ربع ساعة من وقتى فى قراءة الجريدة الأمريكية « التروتسكية » ، ويجب على أن أزيد من نشاطى ، لأستعيد ما فاتنى عمله فى هذا الوقت المفقود •

اشتغلت بأسرع مما كنت أشتغل قبل قراءة هذه الجريدة ، ولكنى فى نفس الوقت كنت أمل أن يقع فى يدي عدد آخر من جريدة « المناضل » ثم وجدت فى نفس الزكية العدد الثانى ، فقرأت بسرعة المقالات المهمة فيه ، ثم أصبحت طريقتى : العمل بدون فترات راحة ، وعند العثور على عدد من جريدة « المناضل » ، أقضى معها بعض دقائق • من المحتمل أنى لست الوحيد فى المجموعة الذى قرأ شيئا مما نشره « تروتسكى » من « أرشيف » الجبهة •

وشرح هذا الاهتمام بسيط جدا : فالجريدة الشعبية التى وقعت فى يدي أثناء تنظيم أرشيف الجبهة (كذلك مقتطفات الصحف الشعبية التى قرأناها فى مدرسة الجبهة) ليست ذات أهمية جوهرية عندنا فهى تتناول أشياء بعيدة عن حياتنا وعن مشاكلنا ، وتستخدم مفاهيم لا تفيدنا بشئ ولهذا فهى لا تثير لدينا اهتماما ، ولكن على العكس من ذلك ما كتبه « التروتسكيون » بلغتنا واصطلاحاتنا ، فهم يخوضون فى أشياء كنت أشك فيها دائما ، ولهذا لا يستغرب اضطرابى أثناء قراءتها فى « الأرشيف » واهتمامى للحصول على المزيد مما كتبه « التروتسكيون » فيها •

أندم كل يوم ، بل كل ساعة على أنى مرتت مرورا سريعا على كل شئ ، فقد كان هناك أشياء كثيرة كنت أحب أن أقرأها — محضر جلسات اللجنة المركزية ، محاورات الاتجاهات المتعارضة ، أسباب طرد زعماء من الحزب — ولكن لم يكن هناك أى امكانية لذلك ، فقد وجب على فتح الزكائب بسرعة « شتخانوف » لحقيقية ، ووضع الوثائق فى محافظ ،

وكتابة العناوين عليها مثل « نقابات » ، « متنوعات » أو حزب
١٩٢١ — ١٩٢٣ م . وكانت الأوامر ترد اليينا كل يوم : لا بالترام الدقة
في الفهرسة ، بل بالاسراع في العمل ، لأنهم يريدون أن ننتهي منه في
أقصر مدة ممكنة ، فالمطلوب أن يكتب في القائمة محتويات المحفظة بشكل
عام أما تفصيل ما فيها فليس ضروريا .

وفي اليوم الخامس ، عندما أردت وضع مجموعة من الوثائق في
محفظة ، سقط منها حوالى ٢٤ صفحة بخط اليد ، وفجأة رأيت توقيعا
 بخط « ستالين » . فأنا أعرف توقيعه لأنه نشر مرات عديدة ، ولكن
لم يقع في يدي حتى الآن وثائق مكتوبة بخط « ستالين » . نظرت فيها
بدقة واهتمام .

يدور موضوعها حول باب من كتاب « أنا لويزا سترونج » (١) حيث
وصفت فيه حديثا مع « ستالين » . كان الباب مكتوبا بالانجليزية ،
ومصحوبا بخطاب من مدير إحدى دور النشر السوفييتية . وذكر في
هذا الخطاب أن الكاتبة الأمريكية « أنا لويزا سترونج » تناولت في
كتابها — وبالتفصيل — حديثا مع « ستالين » ، وترغب الدار أن توجه
سؤالا الى « ستالين » قبل الطبع ، عما اذا كان نشر هذا الباب ممكنا كما
هو ، أم لا بد من ذكر ملاحظات أو تغييرات له . ورأت الدار ألا ترسل
النص الأصلي الانجليزي فقط ، بل أرسلت معه أيضا ترجمة دقيقة له
باللغة الروسية .

وتاريخ هذا الخطاب يرجع — اذا لم تخنى ذاكرتى — الى عام
١٩٣١ م .

وكان جواب « ستالين » على خطاب دار النشر يتكون من سطور
بسيطة هذا نصه :

« ليس عندي شيء ضد النص ، ويمكن نشر الباب كما هو ، أو مع
تغيير أيضا ، يؤخذ فيه رأى المؤلف » .

ج . ستالين .

(١) قبض على « أنا لويزا سترونج » في فبراير ١٩٤٩ بتهمة التجسس ،
ثم طردت بعد ذلك من الاتحاد السوفييتي . وفي ٥ مارس ١٩٥٥ نشرت برافدا
أن القبض عليها كان ظلما ، وقد برئت من التهمة التي وجهت اليها . ونسبت
مسئولية اتهامها زورا الى قيادة وزارة أمن الدولة آنذاك ، وعلى رأسها
« بيريا » و « أباكوف » .

لقد كان بالنسبة لى آنذاك — فى عام ١٩٤٣ حيث كانت عبادة « ستالين » تقارب قممتها — شعورا غريبا ، أن يقع فى يدى خطاب من « ستالين » وغنى عن البيان أنى تصفحت الباب ، ولا زلت أذكر كيف بدا لى مستغربا ألا توجد فيه أجوبة معدة ومكتوبة ، وأن يسمح لكاتبة أجنبية أن تكون حرة فى تصوير الحديث مع « ستالين » • لو حدث هذا فى عام ١٩٤٣ ما كان ممكنا بهذه الطريقة •

وبعد أربعة عشر يوما ، كان الجزء الأكبر من الأرشيف — وان كان ذلك سطحيا — قد تم فهرسته • ثم أخبرنا بأننا بعد الانتهاء من هذا الأرشيف سننتقل الى آخر •

وقف مرافقنا مرة أخرى أمامنا ومعه قائمة :

« الرفيق « ليندين » وثائق أرشيف ألبانيا ، وبورما و « جافا » (١) •
واتتنى التثجاعة لاعتراض خفيف :

« ولكنى لا أعرف اللغة الألبانية ، ولا البورمية ••• وماذا يتحدث سكان « جافا » ؟

فأشار المرافق اشارة رفض :

« لا أعرفها أنا أيضا ، ولكن سوف تحاول بقدر الامكان ، وستصل الى المطلوب » •

وتلقى الآخرون مهمات مماثلة : فكنا فى موقف غريب ، فهرسة « أرشيف » بدون أن نعرف لغته ، والشئ الوحيد الذى كنا نهتدى به الى حد ما ، هو التواريخ وأسماء زعماء الأحزاب التى نعرفها من دراسة مادة تاريخ جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية ، أو اسم مدينة ، أو اشارة الى الأحداث التى عرفناها أيضا فى المدرسة ، وبين الحين والآخر تظهر بعض الوثائق المكتوبة باللغة الانجليزية أو اللغة الروسية ، وعن طريق هذه الاشارات كنا نحاول الوصول الى حل هذه الألغاز لفهرستها • كان هذا العمل أشبه بحل ألغاز الكلمات المتقاطعة •

انتهينا من العمل قبل نهاية الأسبوع الثالث على الرغم من الصعوبات التى واجهتنا •

(١) جزيرة من جزر أندونيسيا • م • شامة •

شكرنا المرافق ، فانظرنا بأعصاب مشدودة ، ماذا يحدث لنا بعد ذلك .
« أيها الرفقاء . . لقد رأينا أنكم لابد أن تمكثوا هنا في « أوفيا » بضعة أيام أخرى ، لتستريحوا قليلا ، وستظلون في فندق (Baschkirija) كما أنتم الآن ، وتحصلون على كل ما يلزمكم منه . وعندما ننتهي من ترتيب بعض الاجراءات سوف تسافرون معي الى موسكو ، حيث تقدمون أنفسكم لأجهزة أحزابكم » .



نظرة جانبية في الحياة « العادية »

الى موسكو ! فرحت فرحا لا حد له ، لأنى سوف أتمكن — بعد هذه الأحداث المهولة التى شاهدهتها فى عامين — من العودة الى العاصمة . ولكن لا زال عندنا الآن بضعة أيام أخر .

لقد تغيرت « أوفيا » فى هذا العام مرة أخرى ، فالقياديون أصحاب المسئوليات العليا قد عادوا مع من يعملون معهم الى موسكو ، ولم يبق هنا فى يوليو سنة ١٩٤٣ م من العاملين فى جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية الا « الطبقة المتوسطة » و « الطبقة العمالية » . وكلهم ينتظرون بفارغ الصبر السماح لهم بالعودة الى موسكو .

قادنى طريقى الأول الى صديقتى « ايرىكا » التى كانت تسكن مع « الطبقة العمالية فى الجبهة » فى شارع « ستالين » رقم ١٠١ . لقد قاست كثيرا فى العام السابق ، غير أنها لم تقع فى مأزق « النقد والنقد الذاتى » ، بل قابلتها صعوبات توصف فى الاتحاد السوفييتى بأنها صعوبات « عادية » .

لم تفرح فرحا كبيرا بالخطوات التى قطعتها فى سلم حياتى فى السنة الأخيرة ، بل قالت ساخرة : « حسنا . . فأنت الآن من طبقة الأذكياء » . فأدركت بوضوح أننى بعدت عن تفكير الانسان « العادى » . ثم وقفت فى اليوم التالى بعد الظهر على تناقض أكثر من هذا فى « الجانب الآخر للحياة » فقد اكتشفت فى طريق العودة الى فندق (Baschkirija) شيئا ، بدا لى أنه سوق ، فاقتربت منه لأستطلع أمره . منظر مرعب ! عدد كبير من الناس يرتدون خرقا بالية على

أجسامهم ، جاءوا الى هذا المكان ليستبدلوا حصتهم الضئيلة من التموين بأشياء أخرى ، فهذه امرأة عجوز لا تستطيع الوقوف على رجليها من شدة الجوع ، تمسك في يديها المرتعشتين قطعة من الخبز الأسمر للمبادلة ، وهذا رجل كبير السن يعرض قطعة من السكر ويريد بدلها خبزا ، وثالث يقدم سيجارتين للبيع ، ويطلب ثمنا للواحدة « ٦ روبل » . فقر لا حد له ، رأيت في سوق « أوفنا » فأيقظ وعيي بسرعة البرق ، كيف سارت حياتي سيرا حسنا في كل الأوقات الماضية ! كدت في مدى شهور قليلة أن أنسى نسيانا تاما أنه يوجد مثل هذا الفقر ، فقد خبت ذكرى أيام « كاراجندا » حيث كنت أعيش في هذا الوضع .

غادرت الفندق بعد غذاء دسم ، حافل بأنواع الطعام المختلفة ، فرأيت رجلا كبير السن يرتدى ثياب ممزقة ، ويبدو عليه علامات الفقر المدقع .

وضعت يدي في جيبي لأبحث عن بعض النقود لأعطيها له ، وفي هذه اللحظة بادرني بالكلام :

« نهارك سعيد يا « ليندين » فأصابني الفزع : من أين يعلم هذا الرجل المجهول اسمي الحركي ؟

ثم اقتربت اليه مدققا النظر فيه ، لقد كان أحد الزملاء في مجموعتنا ، الذي قص علينا ذات يوم بعد الظهر أخبار نشاطه السري في فرنسا أثناء الاحتلال ، ثم اختفى من المدرسة فجأة دون أى تفسير لذلك . لقد مضى على ذلك الآن أكثر من نصف عام . وتدل هيئته على أنه قاسى كثيرا في هذه الأيام . قال لى :

« هل معك قطعة خبز أتقوت بها ؟ »

« لا . . ليس معي الآن ، ولكن اذا عدت من طعام العشاء ، فسوف أحضر لك شيئا ، سوف أحاول أن أحضر خبزا قدر استطاعتي ، حسب الحالة دون أن يلاحظ أحد ، لأنه ليس مسموحا لنا أخذ خبز معنا . . ولكن لا تؤاخذنى . . فأستطيع أن أحضر شيئا آخر غير الخبز » .
أوما أيماءة رقص :

« ولكن يا « ليندين » لست في حاجة الى الاعتذار ، فالآخرون لا يعطونى شيئا اطلاقا حتى الخبز لا أراه منهم ، حتى لا يتكلمون معي ، ومعظمهم يزور عنى اذا رآنى في الشارع . فلو استطعت أن تعطينى

قطعة خبز ، فلن أنساها لك مدى الحياة ، وسأظل شاكرا لك هذا الجميل الى الأبد » •

وفي كل مساء كنت آخذ معي خبزا أيضا فأدسه في جيبه في مكان بعيد عن أعين الناس • فكان يشكرني في كل مرة ، ولكنه كان قليل الكلام جدا • ثم علمت أنه لم يتلق مساعدة من أى مكان بعد طرده من مدرسة الحزب • هذا الرفيق الذى قام بأعمال خطيرة — تنفيذًا لأوامر الحزب — فى سنوات عديدة ، حكم عليه الآن « بالاعدام » وترك لمصيره ، فهو مثل لقسوة « الستالينية » ، تطبقه على كل انسان لم تعد تستفيد منه • ولكن أكثر من هذا ! فعلى الرغم مما رأيته فى « أوبا » كنت بعيدا عن ادانة النظام ككل ، اذ لا زلت أعتقد — فى ذلك الوقت — أن الأمر يتعلق بأخطاء فردية ، وظواهر خلفها ماضى الاتحاد السوفييتى ، لم أزل متعمقا فى الأيدولوجية « الستالينية » تعمقا كبيرا بحيث لا أستطيع المناظر التى رأيته فى « أوبا » ولا التباين الشاسع بين حياة القياديين فى الحزب وبين حياة الانسان « العادى » الذى رأيته واضحا الآن أمام عيني ، فى « أوبا » أن يهز هذه العقيدة عندى •

كانت أحداث أسابيع يوليو سنة ١٩٤٣ التى عشتها فى « أوبا » مثيرة ، فقد سقط موسوليني ، فايطاليا الآن على أبواب الخروج من الحرب ، والكل يأمل أن تنتهى الحرب سريعا •

باغتتنا أحداث يوم ٢١ يوليو فقد نشرت « برافدا » على الصفحة الثالثة بيان اللجنة الوطنية « ألمانيا الحرة » الى القوات المسلحة الألمانية والى الشعب الألمانى • ثم علمنا أن أسرى الحرب من الضباط والجنود الألمانيين اجتمعوا باللاجئين الألمانيين بالقرب من موسكو فى يومى ١٢ ، ١٣ يوليو ، وكونوا فى هذا الاجتماع اللجنة الوطنية « ألمانيا الحرة » • وكان على رأس الأعضاء المنتخبين « ايريش فاينرت » — وكنت أعرفه — ووكيلاه : الرائد « كارل هينس » والملازم « هاينريش جراف فون أين زيديل » •

قرأت البيان باهتمام ، فتأكدت أنه كان « أوسع » من بيان مؤتمر غرب ألمانيا المزعوم ، الذى درسناه دراسة تفصيلية فى مدرسة الجبهة • فقد ذكر فى هذا البيان أن :

« فرأى هير فوم شتاين » و « ارتست موريتس آرنت » و « كلاوس فيتس » و « يورك » نماذج مثالية • ولم يكن فيه أى اشارة الى مطالب

اشتراكية ، ولم يذكر اطلاقا أى شىء عن وجود الشيوعيين الألمانين •
لم نصل الى هذا الحد عندما كنا نناقش « المذهبية » فى مدرسة
الجبهة ، ونهاجم كل من يتصرف تصرفا مذهبيا • لم يكن من الصعب
ادراك أنه لم يكن تكتيكا جديدا فقط فقد ظهر نتيجة حل جبهة الأحزاب
الشيوعية العالمية ، واذاغة بيان للجنة الوطنية بل أن الأمر يتعلق
بتغيير فى الرؤية الاستراتيجية •

ظهر لى هذا أيضا بنوع خاص من مطالب البيان .، فقد صيغت
صيغة « واسعة » بقدر ما يمكن — ربما كان الهدف من ذلك مخاطبة
كل القوى المناهضة لهتلر • — حصر البيان الأهداف — بعد سقوط
ألمانيا الهتلرية — فى تكوين سلطة ديمقراطية قوية (وهذه لا تتفق
فى شىء مع الديمقراطية الهزيلة التى كانت فى الجمهورية الفايمرية) ،
والغاء كل القوانين التى تدعو الى العصبية الجنسية والعداوة ضد
الشعوب الأخرى ، واعادة — وتوسيع — الحقوق السياسية والتأمينات
الاجتماعية ، وحرية الاقتصاد والتجارة (بما فيها تأمين الملكية المكتسبة
عن « طريق مشروع ») ، والافراج فورا عن ضحايا النظام الهتلري
وتعويضهم ، وأخيرا محاكمة عادلة — لا هوادة فيها — لمجرى الحرب ،
والمسؤولين عنها ، ولكن سيكون العفو عن كل أتباع « هتلر » الذين
يتبرأون من أعماله قبل فوات الآوان ، وينفصلون عنه ، وينضمون الى
حركة ألمانيا الحرة •

لا زال تصورى لهذه اللجنة الوطنية ناقصا ، اذ لم أعرف بعد مغزى
اختيار الألوان : الأسود — الأبيض — الأحمر • رمزا لها • فلم يفهم
ذلك من أسلوب « براقدا » •

ولكن كان من الطبيعى أن أهتم جدا باللجنة الوطنية « ألمانيا
الحرة » ولم أرغب فى شىء سوى العمل فيها •

وتحققت أمنيتى ! فعندما كنت أتمنى ذلك فى يوم ٢١ يوليو ، وأرى
أن تحقيقه ممكن ، دعينا لاجتماع فى نفس اليوم بعد الظهر ، وقيل لنا :
« ستسافر مساء اليوم الى موسكو » •

خلفت ورائى « كاراجندا » ، ومدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية
العالمية ، والعمل فى أرشيف الجبهة ، وانتظرت بأعصاب مشدودة ما يأتى
به الغد •

وصلنا فى اليوم التالى الى موسكو •
